في رحاب نوابغ العلماء 1

الشيخ الطبرسي

إمام المفسرين في القرن السادس

حياته وآثاره

العلامة المحقق
آية الله جعفر السبحاني



دار المحجة البيضاء

الشيخ الطبرسي

إمام المفسرين في القرن السادس

حياته وآثاره


بسم الله الرحمن الرحيم

في رحاب نوابغ العلماء ١

الشيخ الطبرسي

إمام المفسرين في القرن السادس

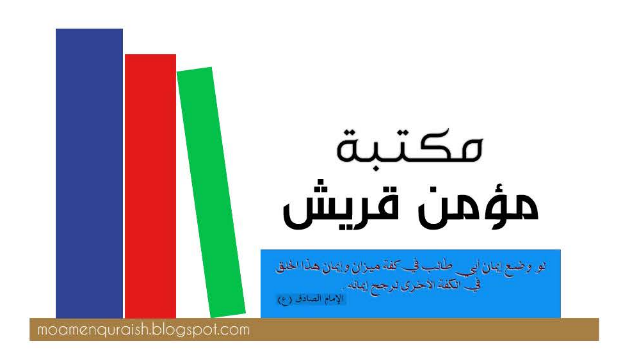
حياته وآثاره

العلامة المحقق
آية الله جعفر السبحاني

دار المحجة البيضاء
دار الرسول الأكرم (ص)

الطبعة الأولى

١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٥ م





حارة حريك - شارع الشيخ راغب حرب - قرب نادي السلطان

ص.ب: ٥٤٧٩ / ١٤ - هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ - تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧

E-mail:almahajja@terra.net.lb
www.daralmahaja.com
info@daralmahaja.com

بسم الله الرحمن الرحيم

تعتزّ الأُمم ـ جميع الأُمم ـ بالعظماء من علمائها ومفكريها وقادتها، الذين كرّسوا حياتهم للنهوض بالأُمّة في ميادين العلم والعمل والكفاح والجهاد، تلبيةً لدواعي الوفاء لهم، وتثميناً لجهودهم، وتعريفاً بمقامهم ومكانتهم، واستلهاماً لعطائهم الثرّ.

وتحقيقاً لهذه الأغراض، آثرنا القيام بتأليف سلسلة (في رحاب نوابغ العلماء)، نُلقي فيها الأضواء على جوانب مهمة من سيرة علمائنا الأفذاذ، و نعرض لأهمّ آرائهم وأفكارهم ونتاجاتهم المتميزة.

ونحن إذ ننشر هذه السلسلة، لا نستهدف من ورائها دعوة الشباب إلى أن يكون عظامياً، يفخر فقط بما أنجزه الماضون من علمائنا الأبرار، وينأىٰ بنفسه عن بناء حاضر مشرق زاخرٍ بالحيوية والنشاط،وإنّما هي دعوة إلى التواصل مع التراث الحي، الذي يبعث الجيل الحاضر على الفخر والاعتزاز لشعوره بأنّ ثقافة أُمّته وحضارتها ضاربة بجذورها في أعماق التاريخ، ثمّ هو ـ الجيل الحاضر ـ يحاول

الإفادة منه، وتطـويره بما ينسجم ومتطلبات العصر، وتطلعـات الشباب المتوثّب للتقدم والنهوض لخدمة إسلامه العزيز وأُمّته العظيمة.

وهنـا نحن نقـدّم إلى القرّاء الأعـزّاء نماذج من حيـاة لفيف مـن علمائنـا وقـادتنـا، لتكون نبراسـاً يستهـدون بـه في مسيرتهم نحـو الخير والكمال. والله المسدّد.

المؤلف

الشيخ الطبرسي

مؤلّف التفاسير الثلاثة

لا تجد كتاباً سماوياً أوجد ضجَّة وتحولاً في الحياة البشرية مثلما أوجده القرآن الكريم في حياة الأُمم، فقد شيّد الحضارةَ الإسلامية وأرسىٰ كيانها وأعطى لها دستوراً جامعاً في مجال الحياة العامّة، ولأجل هذه المكانة السامية لهذا الكتاب، شارك المسلمون عبْر القرون في تسهيل فهم القرآن بتأليف تفاسير بصور مختلفة مذكورة في المعاجم.

وممّن صنف في هذا المجال هو الشيخ الجليل أمين الإسلام أبو علي الفضل بن الحسن بن الفضل الطبرسي، من أعلام الإمامية في القرن السادس الهجري، فقد زوّد المكتبة الإسلامية بتآليفه الثلاثة القيّمة في تفسير القرآن الكريم المعروفة بـ:

١ . «مجمع البيان لعلوم القرآن».

٢ . «الكاف الشاف» اقتصر فيه على الطرائف الأدبية، والظرائف البلاغية الواردة في الكشاف.

٣. «جوامع الجامع»، جمع فيه طرائف الكتابين وظرائفهما.

فمجمع البيان أكبر تفاسيره و ما يليه أصغرها والثالث أوسطهما، ولا أظن أن يكون لهذا المفسر العظيم كتاب آخر في التفسير، وإن كان ربما ينسب إليه غير هذه الثلاثة.

وقد ألّف غير واحد من المحقّقين مقالات ورسائل في ترجمة مفسرنا الكبير غير انّا نشير في هذا المقال إلى نكات خلت منها أكثر المقالات التي أُلّفت لبيان سيرته.

ولادته

ذكر المترجمون انّه توفّي عام ٥٤٨ ولم يشيروا إلى ولادته غالباً، ولكن يمكن استكشاف تاريخ ولادته ممّا ذكره هو في آخر الجزء الأوّل من كتابه «مجمع البيان» فانّه أرّخ فراغه عند تفسير قوله سبحانه: ﴿فمن خافَ مِنْ موصٍ جنفاً أو إثماً فأصلح بينهم فلا إثم عليه إنّ الله غفور رحيم﴾.[1] بقوله: وفرغ من تأليفه يوم السبت لثلاث بقين من شعبان سنة ٥٣٠هـ.[2]

هذا من جانب، ومن جانب آخر انّه ذكر في مقدمة كتابه انّه شرع بهذا التفسير وقد ذرّف سنُّه على الستين واشتعل الرأس شيباً.[3]

---

١. البقرة:١٨٢.

٢. مجمع البيان:١/ ٢٧٠.

٣. مجمع البيان:١/ ١٠.

وتستعمل تلك الجملة فيما إذا تجاوز السن عن الستين، كما أنّه إذا بلغ نفس الستين يقال: ذرّف سني الستين.

فعلى هذا فهو عند الشروع بهذا الكتاب تجاوز سنّه عن الستين بسنة واحدة أو سنتين، فلنفرض انّه كان ابن ٦٢.

فلو استغرق تأليف الجزء الأوّل حوالي سنة فقد بلغ سنه عند الفراغ عنه ٦٣ سنة ولا غرو في ذلك، لأنّه ألّف الأجزاء العشرة الباقية في سبع سنوات، وبما انّ تأليف الكتاب في بدء الأمر يواجه صعوبات جمة، فلا عجب أن يستغرق تأليف الجزء الأوّل منه سنة كاملة.

وعلى ضوء هذا فقد كان مؤلّفنا في سنة ٥٣٠ من أبناء الثالثة والستين فلو نقّصنا ٦٣ سنة من ٥٣٠ هـ نخرج بأنّ ولادته كانت نحو ٤٦٧هـ. ٥٣٠-٦٣=٤٦٧.

مجمع البيان كتاب خالد

ربّ كتاب يبذل المؤلف جهده الحثيث لتأليفه ونشره بحُلّة قشيبة ولكن لا يحظى برغبة القرّاء لاقتنائه، فيبقى في زوايا المكتبات ولا ترى أثراً منه إلاّ في المعاجم وفهارس المكتبات، وربّ كتاب يأخذ بمجامع القلوب وينال إعجاب المحقّقين و تتوالىٰ عليه الرغبات طيلة قرون دون أن يُبلى، مثلاً كتاب «الشرائع في الفقه» للمحقّق الحلّي(٦٠٢ـ ٦٧٦هـ)، و «لسان العرب في اللغة» لابن منظور الإفريقي(المتوفّى ٧٠٧هـ)،

و«ألفية ابن مالك في النحو» لمحمد بن عبد الله بن مالك الطائي(٦٠٠ـ ٦٧٢هـ) من هذا الطراز.

فهذه الكتب الخالدة ونظائرها قد كُتب على جبينها الخلود مادامت الحضارة، وكتاب «مجمع البيان» في عداد هذه الكتب فهو من الكتب التفسيرية الخالدة لمزاياه الخاصة، ولأجل ذلك نرى أنّه مضى على تأليفه حوالي تسعة قرون وهو بعد غضّ طريّ يرجع إليه اللغوي في لغة القرآن، و المقرئ في قراءته، والمؤرّخ في قصصه وأسباب نزوله، والفقيه في تفسير آيات الأحكام، والمتكلّم في معارفه وبحوثه الكلامية.

ومن لطيف ما واجهت انّي في سالف الزمان حللت ضيفاً على كلية الإلهيات في استنبول، ودُعيتُ لإلقاء محاضرة حول أحكام السفر، فإذا بأُستاذ التفسير رحّب بي ودعاني إلى غرفته الخاصة المكتظة بالكتب وأراني كتاب «مجمع البيان» وقال بأنّه يرجع إليه في تفسيره.

هذا هو الشيخ عبد المجيد سليم الشيخ الأسبق لجامع الأزهر ووكيل جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية يصف الكتاب بالنحو التالي ويقول:

«إنّ كتاب «مجمع البيان لعلوم القرآن» الذي ألّفه الشيخ العلاّمة ثقة الإسلام أبو علي الفضل بن الحسن بن الفضل الطبرسي من علماء القرن السادس الهجري، هو

كتاب جليل الشأن، غزير العلم، كثير الفوائد، حسن الترتيب، لا أحسبني مبالغاً إذا قلت إنّه في مقدّمة كتب التفسير التي تعد مراجع لعلومه وبحوثه.

ولقد قرأت في هذا الكتاب كثيراً، ورجعت إليه في مواطن عدة، فوجدته حلاّلَ معضلات، كشّافَ مبهمات، ووجدت صاحبَه عميقَ التفكر، عظيمَ التدبّر، متمكّناً من علمه، قوياً في أُسلوبه وتعبيره، شديد الحرص على أن يجلي للناس كثيراً من المسائل التي يفيدهم علمها».[1]

وهذا هو اعتراف من أحد كبار المشايخ المعاصرين الذي كان من رواد التقريب بين المذاهب، وينظر إلى مذهب الشيعة نظرته إلى سائر المذاهب، فلا غرو في أن يعجبه «مجمع البيان» ويُثني عليه بما ذكر.

إنّ الشيخ محمد حسين الذهبي وزير الأوقاف والشؤون الدينية في مصر ـ الذي اغتيل عام ١٣٩٧هـ مؤلّف كتاب «التفسير والمفسرون» ـ تناول التفاسير المعروفة لدى السنّة والشيعة بالبحث والتمحيص من القرن الثالث إلى العصر الحاضر، وأبان النقاط الإيجابية والسلبية لكلّ تفسير تناوله.

فمع أنّه بخس حقوق أئمّة أهل البيت عليهم السلام حتّى عدّ علياً عليه السلام

١. مقدمة مجمع البيان، المطبوع بمصر.

المفسّر الثالث في الإسلام وعدّ تلميذه ابن عباس المفسّر الأوّل و سعيد بن جبير المفسّر الثاني، وكما بخس حقوق مفسّري الشيعة، وعلى الرغم من ذلك فقد خضع لتفسير «مجمع البيان» وأشاد به وقال ما هذا نصّه:

«والحقّ انّ تفسير الطبرسي بصرف النظر عمّا فيه من نزعات تشيعية، وآراء اعتزالية، كتاب عظيم في بابه، يدلّ على تبحّر صاحبه في فنون مختلفة من العلم والمعرفة، والكتاب يجري على الطريقة التي أوضحها لنا صاحبه في تناسق تام، وترتيب جميل، وهو مجيد في كلّ ناحية من النواحي التي يتكلّم عنها، فإذا تكلّم عن القراءات ووجوهها أجاد، وإذا تكلّم عن المعاني اللغوية للمفرد أجاد، وإذا تكلّم عن أسباب النزول وشرح القصص استوفى الأقوال وأفاض، وإذا تكلّم عن الأحكام تعرض لمذاهب الفقهاء وجهر بمذهبه ونصره إن كانت هناك مخالفة منه للفقهاء، وإذا ربط بين الآيات آخىٰ بين الجمل، وأوضح لنا عن حسن السبك وجمال النظم، وإذا عرض لمشكلات القرآن أذهب الإشكال وأراح البال، وهو ينقل أقوال من تقدّمه من المفسّرين معزوة لأصحابها، ويرجح ويوجه ما يختار منها ـ إلى أن قال: ـ

و الحقّ أن يقال: انّـه ليس غاليـاً في تشيّعه ولا متطـرفاً في عقيدته».[1]

براعته في الترتيب والتنظيم

إنّ من أهمّ ميزات هذا الكتاب هو الترتيب الفائق المشاهَد فيه، حيث جمـع علوم القرآن فـي كتابه لكـن بتنسيق وتهـذيب لم يَسبـق له أحد، ولم يَلْحقه أحد، فذكر اختلاف القراءات في الآيات وحججها، كما ذكر إعـرابها ومعاني لغاتهـا وأسباب نزولها كلاًّ فـي فصل خاص، ولـم يخلط بين المباحث، فعلى القارئ الذي يريد الوقوف على موضوع خاص لا يكدّ نفسه في العثور على ما يـريد، وهذه الميزة كانت موضع إعجاب الشيخ شلتوت، فقال في هذا الموضوع:

لقد قلتُ: إنّ هذا الكتاب نسيج وحده بين كتب التفسير، وذلك لأنّه مع سعة بحوثه وعمقها وتنوّعها، له خاصية في الترتيب والتبويب، والتنسيق والتهذيب، لـم تعرف لكتب التفسير من قبله، ولا تكاد تعرف لكتب التفسيـر من بعـده، فعهدُنـا بكتب التفسيـر الأُولى أنّهـا تجمع الـروايات والآراء فـي المسائل المختلفـة، وتسـوقها عنـد الكلام علـى الآيات سوقاً متشـابكاً، ربما اختلط فيه فنّ بفن، فمـا يزال القارئ يكدّ نفسه في استخلاص ما يريد من هنا و هناك حتّى يجتمع إليه ما تَفرّق،

١. التفسير والمفسرون: ٢/ ١٠٤.

وربما وجد العناية ببعض النواحي واضحة إلى حد الإملال ، والتقصير في بعض آخر واضحاً إلى درجة الإخلال ، أمّا الذين جاءوا بعد ذلك من المفسرين ، فلئن كان بعضهم قد أطنبوا ، وحقّقوا وهذبوا ، وفصلوا وبوبّوا ، انّ قليلاً منهم أُولئك الذين استطاعوا مع ذلك أن يحتفظوا لتفسيرهم بالجوّ القرآني الذي يشعر معه القارئ بأنّه يجول في مجالات متّصلة بكتاب الله اتّصالاً وثيقاً وتتطلبها خدمته حقاً لا لأدنى ملابسة وأقل مناسبة .[1]

الطبرسي وأداؤه لحقّ معاصره

إنّ السنّة الجارية بين المعاصرين ـ إلاّ مَن عصمهم الله ـ عدم الاهتمام بآثار معاصريهم في مجال العلم والفن، بل ربما ينظرون إليه بعين التحقير، ومع ذلك فانّ هناك رجالاً أحراراً خرقوا حجاب التعاصر ويرى للمعاصر حقّاً مثلما لغيره، ويقول في ذلك:

قل لمن لا يرى المعاصر شيئاً ويرى للأوائل التقديما
انّ ذاك القديم كان حديثاً وسيبقى هذا الحديث قديماً[2]

فمن هذه الطائفة السامية شيخنا أبو علي الطبرسي فانّه

١ . مجمع البيان : تقديم الإمام شلتوت : ٢٠ .
٢. كشف الظنون:١/ ٣٠.

بعدما فرغ من كتابه الموسوم بـ«مجمع البيان لعلوم القرآن» عثر على كتاب الكشاف لحقائق التنزيل للزمخشري (٤٧١ـ ٥٢٨هـ) فرأى فيه ظرائف وطرائف أحب أن يجمعها في كتاب خاص، فيقول في هذا الصدد:

إنّي لمّا فرغت من كتابي الكبير في التفسير الموسوم بـ«مجمع البيان لعلوم القرآن»، ثمّ عثرت من بعدُ، بالكتاب الكشّاف لحقائق التنزيل لجار الله العلامة، واستصلحت من بدائع معانيه وروائع ألفاظه ومبانيه، ما لا يلفى مثله في كتاب مجتمع الأطراف، ورأيت أن أسمه وأُسمّيه بالكاف الشاف، فخرج الكتابان إلى الوجود، وقد ملكا أزمّة القلوب، إذ أحرزا من فنون العلم غاية المطلوب، وجادت جدواهما، وتراءت ناراهما، وبُعد في استجماع جواهر الألفاظ وزواهر المعاني صداهما، فسارا في الأمصار مسير الأمثال، وسريا في الأقطار مسرى الخيال.

ثمّ اقترح عليّ ولدي أبو نصر الحسن ــ أحسن الله نصره وأرشد أمري وأمره ـ أن أُحرّر من الكتابين كتاباً ثالثاً، يكون مجمع بينهما ومحجر عينهما، يأخذ بأطرافهما ويتّصف بأوصافهما، فيتحقّق ما قيل: إنّ الثالث خير.[1]

---

١. جوامع الجامع: ١/ ٢، المقدّمة.

اختبار صحّة ما ادّعاه المؤلّف

ادّعى الإمام الطبرسي أنّه ألّف «مجمع البيان» ولم يكن قد اطّلع على تفسير الكشاف للزمخشري، وهذا خبر هو يخبر به، وهو بما انّه عالم صدوق نصدّق خبره، ومع ذلك فلنا أن ندعم هذا الخبر عن طريق الرجوع إلى المواضع المشتركة بين الكشاف ومجمع البيان كي يتبين الأمر في ضوء الواقع، فانّ الزمخشري معتزلي، والطبرسي إمامي، وكلاهما من العدلية يشتركان في أُصول كثيرة كلامية، وهذا هو الذي اختبره شلتوت عند تقديمه لمجمع البيان، فقال:

رجعت إلى أوّل موضع يظن انّهما يتلاقيان فيه، وهو تفسير قوله تعالى: ﴿ انّ الّذين كَفَرُوا سَواء عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرتهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاٰ يُؤمِنُون* خَتَمَ الله عَلىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلى سَمْعِهِمْ وَعَلىٰ أَبْصارِهِمْ غِشاوَة وَلَهُمْ عَذابٌ عَظيم﴾.

فأمّا الإمام الطبرسي في كتابه «مجمع البيان» فقد تحدث من ناحية المعنى في موضعين:

أحدهما: معنى «لا يؤمنون» وما يتّصل به من بيان عدم التعارض بين العلم الإلهي والتكليف، لأنّ العلم يتناول الشيء على ما هو به، ولا يجعله على ما هو به.

الثاني: معنى ﴿خَتَمَ الله عَلىٰ قُلُوبِهِم﴾ وبيان الآراء المختلفة فيه، وقد ذكر أربعة آراء، وأيّد الرابع منها وقوّاه بشواهده.

وهذا هو نصّ كلامه في الوجه الرابع لنضعه موضع المقارنة مع كلام الزمخشري حتّى يتبيّن الفرق بينهما:

«ورابعها: أنّ الله وصف من ذمّه بهذا الكلام بأنّ قلبه ضاق عن النظر والاستدلال فلم ينشرح له، فهو خلاف من ذكر في قوله: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ الله صَدْرَهُ للإِسْلام فَهُوَ عَلىٰ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾، ومثل قوله: ﴿أَمْ عَلىٰ قُلُوبٍ أَقْفالُها﴾ وقوله: ﴿وَقالُوا قُلُوبنا غُلف﴾، ﴿وَقُلُوبنا في أَكنّة﴾ ويقوى ذلك أنّ المطبوع على قلبه، وُصِفَ بقلّة الفهم لما يسمع من أجل الطبع، فقال: ﴿بل طبع الله عليها بِكُفرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إلاّ قَليلاً﴾ وقال: ﴿وطبَعَ عَلىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُون﴾ ويبيّن ذلك قوله تعالى: ﴿قُل أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ الله سَمْعكُمْ وَأَبصاركُمْ وَخَتَمَ عَلىٰ قُلُوبكم﴾ فعدل الختم على القلوب، بأخذه السمع والبصر، فدلّ هذا على أنّ الختم على القلب هو أن يصير على وصف لا ينتفع به فيما يحتاج فيه إليه، كما لا ينتفع بالسمع والبصر مع أخذهما، وإنّما يكون ضيقه بألا يتسع لما يحتاج إليه فيه من النظر والاستدلال الفاصل بين الحقّ والباطل، وهذا كما يوصف الجبان بأنّه لا قلب له، إذا بولغ في وصفه بالجبن، لأنّ الشجاعة محلّها القلب، فإذا لم يكن القلب الذي هو محلّ الشجاعة لو كانت، فأن لا

تكون الشجاعة أولى، قال طرفة:

فالهبيت لا فؤاد له والثبيت قلبه قيمه

وكما وصف الجبان بأنّه لا فؤاد له، وأنّه يراعة، وأنّه مجوف؛ كذلك وصف من بعد عن قبول الإسلام بعد الدعاء إليه، وإقامة الحجة عليه، بأنّه مختوم على قلبه، ومطبوع عليه، وضيّق صدره، وقلبه في كنان وفي غلاف، وهذا من كلام الشيخ أبي علي الفارسي، وإنّما قال ختم الله، وطبع الله، لأنّ ذلك كان لعصيانهم الله تعالى، فجاز ذلك اللفظ، كما يقال: أهلكته فلانة إذا أعجب بها، وهي لا تفعل به شيئاً ،لأنّه هلك في اتباعها».

هذا هو نصّ كلامه، ومنه يتبيّن:

١ . أنّه ممّن يؤيد الرأي القائل بأنّ الختم ليس حقيقياً، وإنّما هو على معنى من المجاز.

٢ . وأنّه يستعين في بيان ذلك بالآيات المشابهة لهذا الموضع في القرآن الكريم، وبالشعر، وبقول أبي علي الفارسي، وبما هو مألوف في العربية من مثل هذا التعبير بإسناد الفعل إلى من لم يفعله، ولكن وقع بسبب منه، فالختم أسند إلى الله لأنّه بمعناه الذي فسر به كان بسبب عصيانهم لله، كما يقال أهلكته فلانة وهي لم تهلكه وإنّما هلك باتباعها.

وأمّا الإمام الزمخشري في كتابه «الكشاف» فقد عرض لهذا

الموضوع في تفصيل أكبر، وضرب له كذلك أمثلة من الشعر والكلام العربي، وأورد فيه بعض الأسئلة وردّ عليها، ومع كون الفكرة التي يؤيّدها الإمام الزمخشري هي نفس الفكرة التي رأينا الإمام الطبرسي يؤيّدها. فانّ عبارة الزمخشري أوسع وأشمل، وأمثلته من الشعر أوضح في بيان المقصود، وتخريجه العربي لهذا التعبير مبني على دراسة فنية بلاغية مقررة المبادئ بين العلماء، فلو كان الطبرسي قد اطّلع على كتاب «الكشاف» لكان قد أيّد ما ذهب إليه بما ذكر الزمخشري نقلاً عنه أو تلخيصاً له، ولكنّنا لا نجد بين العبارات في الكتابين تلاقياً إلاّ على الفكرة، أمّا الأمثلة والعرض واسلوب البحث فمختلفة.

والآن نورد نصّ الإمام الزمخشري، كما أوردنا نصّ الإمام الطبرسي، وندع للقراء أن يتأمّلوا النصّين، على ضوء ما قلناه، فسيتضح لهم أنّ الطبرسي قطعاً لم ير«الكشاف» و هو يؤلّف «مجمع البيان».

قال الزمخشري:

«فإن قلت: ما معنى الختم على القلوب والأسماع وتغشية الأبصار؟

قلت: لا ختم ولا تغشية ثَمَّ على الحقيقة، وإنّما هو من باب المجاز، ويحتمل أن يكون من كلا نوعيه، وهما الاستعارة والتمثيل.

أمّا الاستعارة فأن تُجعل قلوبهُم ــ لأنّ الحقّ لا ينفذ فيها، ولا

يخلص إلى ضمائرها من قبل إعراضهم عنه، واستكبارهم عن قبوله واعتقاده ــ وأسماعُهم ــ لأنّها تمجّه، و تنبو عن الإصغاء إليه، وتعاف استماعه ـ كأنّها مستوثق منها بالختم، وأبصارُهم ـ لأنّها لا تجتلي آيات الله المعروضة، ودلائله المنصوبة، كما تجتليها أعين المعتبرين المستبصرين ـ كأنّما غُطي عليها، وحجبت، وحيل بينها و بين الإدراك.

وأمّا التمثيل فأن تُمثَّل ـ حيث لم ينتفعوا بها في الأغراض الّتي كلّفوها وخُلقوا من أجلها ـ بأشياء ضرب حجاب بينها و بين الاستنفاع بها بالختم والتغطية، وقد جعل بعض المازنيين الحبسة في اللسان والعي ختماً عليه فقال:

ختم الإله على لسان عذافر ... ختماً فليس على الكلام بقادر

و إذا أراد النطق خلت لسانه ... لحماً يحركه لصقر ناقر!

فإن قلت: لِمَ أسند الختم إلى الله تعالى، و إسناده إليه يدلّ على المنع من قبول الحقّ والتوصّل إليه بطرقه، وهو قبيح، والله يتعالى عن فعل القبح علواً كبيراً، لعلمه بقبحه، وعلمه بغناه عنه، وقد نصّ على تنزيه ذاته بقوله: ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾، ﴿وَما ظَلَمْناهُمْ وَلكِنْ كانُوا هُمُ الظّالِمِينَ﴾، ﴿إِنَّ اللهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ﴾. ونظائر ذلك ممّا نطق به التنزيل؟

قلت: القصد إلى صفة القلوب بأنّها كالمختوم عليها، وأمّا إسناد

الختم إلى الله عزّ وجلّ؛ فلينبه على أنّ هذه الصفة في فرط تمكنها وثبات قدمها كالشيء الخِلقي غير العرضي، ألا ترى إلى قولهم فلان مجبول على كذا، ومفطور عليه، يريدون أنّه بليغ في الثبات عليه، وكيف يُتخيّل ما خُيِّل إليك وقد وردت الآية ناعية على الكفار شناعة صفتهم، وسماجة حالهم، ونيط بذلك الوعيدُ بعذاب عظيم، ويجوز أن تضرب الجملة كما هي - و هي ﴿ختم الله على قلوبهم﴾ - مثلاً، كقولهم: سال به الوادي إذا هلك؛ وطارت به العنقاء، إذا أطال الغيبة، وليس للوادي، ولا للعنقاء عمل في هلاكه، ولا في طول غيبته، وإنّما هو تمثيل: مُثلت حاله في هلاكه بحال من سال به الوادي، وفي طول غيبته بحال من طارت به العنقاء، فكذلك مُثلت حال قلوبهم فيما كانت عليه من التجافي عن الحق، بحال قلوب ختم الله عليها، نحو قلوب الأغتام[1] التي هي في خلوها من الفطن كقلوب البهائم، أو بحال قلوب البهائم أنفسها، أو بحال قلوب مقدرٍ خَتمُ الله عليها حتّى لا تعي شيئاً ولا تفقه، وليس له عزّ وجلّ فعلٌ في تجافيها عن الحقّ، ونبوها عن قبوله، وهو متعالٍ عن ذلك، ويجوز أن يستعار الإسناد في نفسه من غير الله، فيكون الختم مسنداً إلى اسم الله على سبيل المجاز، وهو لغيره حقيقة، تفسير هذا أنّ للفعل ملابسات شتى:

١. جمع أغتم، وأصل الغتمة اللون المائل إلى السواد، كأنّه وصف به من ليس له قلب صاف، قال المؤلف في كتابه «أساس البلاغة»: فلان أغتم، من قوم غتم وأغتام، وفيه غتمة، وهي العجمة في المنطق من الغتم، وهو الأخذ بالنفس.

يلابس الفاعل، المفعول به، والمصدر، والزمان، والمكان، والمسبب له، فإسناده إلى الفاعل حقيقة، وقد يسند إلى هذه الأشياء عن طريق المجاز المسمّى استعارة، وذلك لمضاهاتها للفاعل في ملابسة الفعل، كما يضاهي الرجل الأسد في جرأته، فيستعار له اسمه، فيقال في المفعول به: عيشة راضية، وماء دافق، وفي عكسه: سيل مفعم، وفي المصدر: شعر شاعر، وذيل ذائل، وفي الزمان: نهاره صائم، وليله قائم، وفي المكان: طريق سائر، ونهر جار؛ وأهل مكة يقولون: صلّى المقام، وفي المسبب: بنى الأمير المدينة، وناقة ضبوث وحلوب[1]» الخ.

هذا هو نصّ كلام الزمخشري في الكشاف، وبينه و بين كلام الطبرسي فرق بعيد، ومثل هذا هو الذي جعل مؤلف «مجمع البيان» لا يقنع بما وصل إليه، حتّى يصله بما جد له من العلم، فيخرج ما أخرج من كتاب جديد، جمع فيه بين الطريف والتليد!

نفسيات المؤلّف

إنّ ما قام به المفسّر الكبير الشيخ الطبرسي يعرب عن أُمور:

أوّلاً: أنّه أدّى حقّ معاصره الزمخشري ولم يبخس حقّه، وصرح بأنّ في كتاب «الكشاف» طرائف وظرائف خلى عنها كتاب «مجمع البيان».

١. ضبث بالشيء وعليه: قبض قبضاً شديداً، وهو مثله في الوزن أيضاً، فالناقة الضبوث ضد الناقة الحلوب.

ثانياً: أنّه خرق بذلك حجاب التعاصر الذي لم يزل سائداً عبر قرون بين الكُتّاب والمحقّقين، حيث إنّ براعة المؤلّف لا تقُدّر في حياته إلاّ نادراً فبعد ما قضى نحبه تتجلّى عبقريّته على ألسن الخطباء والكتاب.

ثمّ إنّ الإمام شلتوت يصف ذلك الخلق العلمي والخصلة المحمودة من المؤلف ويقول:

إنّني أقف هنا موقف الإكبار والإجلال لهذا الخلق العلمي، بل لهذه العظمة في الإخلاص للعلم والمعرفة، فهذا الصنيع يدلّ على أنّ الرجل كان قد بلغ به حب الدراسات القرآنية حداً كبيراً، فهو يتابعها في استقصاء، ثمّ يجهد نفسه في تسجيلها وترتيبها على هذا النحو الفريد الذي ظهر في «مجمع البيان»، ثمّ لا يكتفي بما بذل في ذلك من جهد كفيل بتخليد ذكره، حتّى يضيف إلى آثاره العلمية ما جدّ له بعد ان انتهى من تأليف كتابه، ولعلّه حينئذٍ كان قد بلغ السبعين أو جاوزها.[1]

ونضيف و نقول: إنّ تلك الخصلة الإنسانية قد لمسناها من بعض مشايخنا المحقّقين نظير السيد الإمام حسين البروجردي(١٢٩٢ـ ١٣٨٠) فانّه ألّف موسوعة كبيرة، جمع فيها أسانيد كلّ راوٍ إلى الإمام فقط ورتبها في فهارس كاملة، وبذلك فتح باباً جديداً في التعرف على قيمة الراوي من حيث عدد مشايخه وتلاميذه ومقدار روايته. وقد بذل

---

١. مجمع البيان:٢٩، المقدمة.

جهداً شاقاً في هذا السبيل التهمت منه بضع سنين.

ولمّا غادر موطنه«بروجرد» وألقى عصا الإقامة في مدينة قم عام ١٣٦٤، عرض أثره هذا على مشايخ الحوزة وعلمائهم، ولمّا وقف على أنّه ليس أوّل من تفطن بذلك والتفت إليه، بل سبقه بعض محقّقي علم الرجال كالشيخ محمد الأردبيلي المتوفّى في أوائل القرن الثاني عشر، في كتابه «جامع الرواة» فانّه يختار في ترجمة الرواة جملة من الأسانيد من الكتب الأربعة وغيرها ويستدلّ بها على شيوخ الراوي وتلاميذه وطبقتهم من دون استقصاء، رغب السيّد الاطّلاع على هذا الكتاب المخطوط، ولمّا رجع إليه ووقف على قيمة الكتاب قام بطبعه قبل أن يقوم بنشر كتابه حتّى قدَّم له مقدمة ثمينة أشاد فيها بها لهذا الكتاب من المكانة حيث قال:

الامتياز القيم الذي أوجب تقديرنا له، إنّما لكتابه «جامع الرواة» باعتبار ما فيه من جمع رواة الكتب الأربعة وذكر من رووا منه، و من روى عنهم و تعيين مقدار رواياتهم ورفعه بذلك بعض النقص من كتب الرجال، وانّي حين ما كنت ببروجرد وكنت أراجع ـ في أثناء أبحاثي لمعرفة أسانيد الروايات ـ ما صنّفه علماؤنا من الفهارس والرجال والمشتركات تفطّنت لما تفطّن له هذا الشيخ الجليل ولغيره من النقص في تلك الكتب ولكنّي سلكت في رفعها مسلكاً آخر غير ما سلكه.[1]

---

١. جامع الرواة: المقدمة ص ز.

تقديره لكتاب «التبيان»

إنّ الإمام الطبرسي من المؤلّفين المخلصين الذين لا يبغون من وراء التأليف والتصنيف إلا وجه الله سبحانه، وسدّ الفراغ الهائل في المكتبة الإسلامية دون أن يُعير أهمية للشهرة، فهذا هو الملموس في حياة الإمام الطبرسي فإنّه يُشيد في مقدّمة «مجمع البيان» بكتاب «التبيان» ويصفه على النحو التالي: إنّه الكتاب الذي يقتبس منه ضياء الحق ويلوح عليه رواء الصدق. قد تضمن من المعاني، الأسرارَ البديعة، واحتضن من الألفاظ، اللغة الوسيعة. ولم يقنع بتدوينها دون تبيينها. ولا بتنميقها دون تحقيقها. وهو القدوة استضيء بأنواره، وأطأ مواقع آثاره.[1]

فنحن نثمن هذا الخلق العلمي الرفيع الذي ينبغي أن يتحلّى به كلّ محقق مخلص فيعترف بفضل من تقدم عليه واغترف من علومه وصدر عن كتبه.

من التبيان إلى الميزان

عاش الإمام أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (٣٨٥ـ ٤٦٠) في القرن الرابع والخامس، و قد أسدى خدمة عظيمة إلى التراث الإسلامي

---

١. مجمع البيان: ج١، المقدمة.

من خلال تأليفه كتاب «التبيان في تفسير القرآن»، وقد تبعه الآخرون ممّن جاء بعده في هذا المنهج فألّفوا كتباً و موسوعات تفسيرية بين مطبوعة ومخطوطة، مع أنّهم ـ قدّس الله أسرارهم ـ قاموا بواجبهم، لكنّا نرى أنّ الفاصلةالعلمية بين «التبيان» في القرن الخامس و«الميزان» في القرن الخامس عشر ليست هائلة، وكان المترقّب أن يتطور علم التفسير عبر القرون العشرة في الأوساط الشيعية أكثر من ذلك، ولو انتزعنا من تفسير «الميزان» للعلاّمة الطباطبائي (١٣٢١ـ ١٤٠٢) المباحث الفلسفية والاجتماعية منها لم يبق ثمة فاصلة تذكر بينهما، ونرى عكس ذلك في الحقل الفقهي فأين كتاب النهاية والمبسوط للشيخ الطوسي من كتاب جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام للشيخ محمد حسن النجفي(١١٩١ـ١٢٦٦)، فإنّ الفاصل بينهما هائل جداً، يعكس حجم التطور الذي وصل إليه الفقه، وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على أنّ الظروف لم تكن تسمح لعلماء الشيعة بإدخال التطور في حقل التفسير نظير التطوير في الفقه وإن كان ما قاموا به من التفاسير القيمة غنى و كفاية، وقد ألمعنا إلى تاريخ التفسير عند الشيعة والآثار التي خلّفوها في ذلك المجال في كتابنا مفاهيم القرآن.[1]

١. راجع الجزء العاشر من مفاهيم القرآن، تحت عنوان الشيعة والتفسير تدويناً و تطوراً، ص ٣٠٠ـ٤٤٨.

فقاهة الإمام الطبرسي

إنّ الإمام الطبرسي كـان إمام المفسّريـن في عصره وبعده، ولكنّـه كان إلى جانب ذلك فقيهاً بارعاً في حقل الفقه، حيث نرى أنّه يستدل في مـواطـن كثيرة مـن تفسيره على آرائه الفقهيـة بظـواهـر الآيـات والسنّـة الشريفة، فمع أنّه يشير في ذلك الباب إلى آراء الآخـرين ولكن يؤيد نظره السامي بوجوه تثبت ما رام إليه.

والذي يـدلّ على اضطلاعه في الفقه انّـه لخّص كتاب «الخلاف» للشيخ الطـوسي وأسماه «المؤتلف من المختلـف»، وهو يصـف عمله في ذلـك الكتاب بقـولـه: إنّي لمّا تصفّحـت كتاب مسـائل الخلاف للشيـخ الأوحـد السعيد، والفـذ في دهـره، الفريـد أبي جعفـر محمـد بن الحسـن الطوسي وجـدته قد عـول في أكثر مسائلـه على الاستدلال بإجماع الفـرقة المحقة، إذ هو المرجـوع إليه المعتمد عليه، المذكور وجـه الاستدلال به في كتب أُصول الفقه.

ثمّ إن كان في المسألة خلاف بين الطائفة أومأ إليه، وما لم يكن فيه إجماع أشار إلى طـريق آخر في الاستـدلال عليه مـن ظاهر قـرآن، أو سنّة مقطوع بها، أو دليل خطـاب [أو استصحاب حال ـ على ما يـذهب إليه كثير من أصحابنا ـ أو دلالة أصل أو فحوى من خطاب].

وذكر في بعض مواضع أخباراً من كتـب العامّة يلزمهم الانقياد لها

والعمل بها، فرأيت تكرار ذكر إجماع الفرقة ممّا لا طائل فيه سوى إطالة الكتاب، فأثبت رؤوس المسائل والخلاف فيها على أوجز الوجوه، فكلّ مسألة عوّل فيها على إجماع الفرقة لم أذكر استدلاله إلاّ إذا اقترن بذلك الإجماع، شيء سواه ممّا أُريد ذكره فأذكره، وإيّاه، وإن لم يكن في المسألة إجماع للفرقة أشرت إلى ما ذكره من الأدلّة أو بعضها وأسقطت من بعض مودعات أدلّته مالم أجد فيه كثير فائدة أو يكون معاداً ليس في إعادته مزيد عائدة.[1]

ثمّ إنّ الشيخ الطوسي أسمى كتابه باسم«الخلاف» ولكن الإمام الطبرسي لخصّ ذلك الكتاب على النحو الذي مرّ وأسماه بـ «المؤتلف من المختلف» وهذه التسمية تعرب عن سعة صدره وابتعاده عن العصبية المذهبية، وانّ المسلمين أرباب دين واحد وكتاب واحد وأُصول واحدة، وإنّما اختلفوا فيما روي عن الرسول لا في نفس الرسول، فيمكن أن ينتهي الخصام إلى الائتلاف، وذلك من خلال تأسيس مؤتمرات فقهية أو مجالس تشريعية يطرح فيها المختلفات وتدارس براهينها و ما يؤيده البرهان هو المتبع سواء أوافق مذهب إمام أو لا.

---

١. المؤتلف من المختلف:١/ ٣ـ٤.

آثاره العلمية

إنّ لشيخنا المترجم وراء هذه التفاسير آثاراً ثمينة لها قيمتها العلمية نشير إلى بعضها وإن عبثت بها يدُ التاريخ فلم يبق منها عين ولا أثر.

١. تاج المواليد.

٢. غنية العابد.

٣. النور المبين.

٤. العمدة في أُصول الدين.

٥. الفرائض والنوافل.

٦. شواهد التنزيل لقواعد التفضيل.

٧. عدّة السفر وعمدة الحضر.

٨. كنوز النجاح.

٩. الكاف الشاف عن كتاب الكشاف.

إلى غير ذلك من الآثار والمؤلفات التي نسبت إليه في المعاجم.

جامعية مجمع البيان

إنّ تفسير «مجمع البيان» كتاب جامع لعلوم القرآن، إذ هو ينقل أكثر الآراء أو جميعها في تفسير الآيات بصدر رحب ثمّ يؤيد ما اختاره،

وهـذا يدلّ على أنّـه كـان محيطاً بـآراء المفسريـن مـن القدامـى والجدد فجمعها ونقلها وبذلك أغنى الباحث عن كثير من التفاسير، ومع ذلك كلّه ففيه مزايا أُخرى ظاهرة نشير إلى بعضها:

١. في غضـون ذلك الكتـاب مباحـث كـلامية طـرحها المؤلـف حسب اقتضاء الآيات، فلو قام المحقّق الكلامي العارف بأُسلوب هذه المباحـث، بجمعها وترصيفهـا وتنظيمها لخرج بكتـاب كلامي بـاهر في مختلف الأبواب. وسيوافيك نماذج من آرائه الكلامية في آخر الرسالة.

كما يمكن إجراء ذلـك العمل في كتاب «مفاتيـح الغيب» لفخر الديـن الرازي(٥٤٣ـ ٦٠٨هـ) ففيه مبـاحث كـلامية هـامة لمختلـف الفرق، فلو انتـزعت تلك المباحث بشكـل علمي لأصبح كتابـاً كلامياً جامعاً بين الأقوال.

وفي تفسير الرازي مزية أُخرى، و هو انّه كثيراً ما أيّد مذهب أئمّة أهل البيـت في الفروع والأُصـول، وأقام بـراهين قيّمة على مختـارهم وإن عدل عنها بوجوه واهيـة ـ أو سياسية ـ، فانتزاع هذه المبـاحث من هذا التفسير يوقفنا على موقف الرازي من اتّباع الحق ودعمه.

٢. انّ أبا علي الجبائي ألّف كتاباً باسم «حجة القراءات» والشيخ الطبرسي قد نقـل من ذلـك الكتاب عند البحـث عن وجـوه القراءات، ولعـلّ ذلك الكتـاب بجملته مـوجـود في غضون «مجمـع البيان»، فلـو

انتزعت حجج القراءات من المجمع وأشرف عليه محقّق بارع لانتهى إلى إحياء ذلك الكتاب المفقود.

٣. انّ أوّل من دوّن سيرة النبيﷺ هو العالم الشيعي الكبير محمد بن إسحاق (المتوفّى عام ١٥١هـ) واستخرج تفاصيل الوقائع الإسلامية من كتب الماضين، ومن ثنايا رواياتهم ومنقولاتهم واشتهر بسيرة ابن إسحاق، وهي التي لخّصها ابن هشام(المتوفّى ٢١٨هـ) وعرفت بالسيرة النبوية.

وقد فقدت سيرة ابن إسحاق، ومع الفحص الأكيد الذي بذله المحقّقون حول العثور على ذلك الكنز لم يقفوا على نسخة كاملة، غير أنّ الإمام الطبرسي قد نشر كلّ ما في هذا الكتاب ممّا يمت إلى المغازي على صفحات كتابه، فللباحث أن يستخرج ما يمت إلى المغازي من سيرة ابن إسحاق من ذلك الكتاب، وبذلك يُعاد الكتاب إلى الساحة ويُعلم المقدار المحذوف منه في سيرة ابن هشام.

تضلّعه في التاريخ والقصص

إنّ من سبر كتاب «مجمع البيان» يقف على أنّ المؤلّف يذكر قصص الأنبياء ومغازي النبيﷺ على وجه يناسب كتابه، وهو يعرب عن إلمامه بالتاريخ، ويشهد على ذلك كتابه القيم «إعلام الورى بأعلام الهدى» عرض فيه مؤلّفه فضائل وحياة أهل بيت العصمة والطهارة

بشكل بديـع، رتّب كتابه على أربعـة أركان، تتفرع عنها أبـوابٌ وفصول متعدّدة، تنـاول فيها التفصيل مـن خلال استعراض حيـاة المعصوم عليه السلام مجملَ ما يختصّ بالتاريخ المتصل به والمعاصر له.

خصّص الـركن الأوّل من كتـابه لسيرة رسـول الله صلى الله عليه وآله والأحداث الكبرى التي زاملت عصـر الرسالة الأُولى، وبترتيـب وتنسيق دقيقين، تتبّـع من خـلال ذلك، معظـمَ الجوانـب المتّصلة بحيـاة الرسـول صلى الله عليه وآله والقضايا التي ترتبط ارتباطاً عفويـاً بالعقيدة الإسلامية المباركة، ومنها تأكيـدات رسول الله صلى الله عليه وآله وتوجيهاتـه للأُمّة بـوجوب التمسك بأهـل بيته المعصومين عليهم السلام باعتبـارهم قـرناء القرآن، والأُمنـاء على الـرسالـة من بعده.

وأمّا الركن الثاني من الكتـاب فقد خصّصه لوصي رسول الله صلى الله عليه وآله وخليفته من بعده علي بـن أبي طالب عليه السلام بيّن فيه مجملَ جوانب حياته المباركة، ودوره المنير في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وبعده، والمحن والفتن التي لازمته حتّى استشهاده.

وخصص المؤلف رحمه الله الركـن الثالث مـن الكتاب لباقـي الأئمّة المعصومين عليهم السلام حتّى الإمـام الحسن العسكـري عليه السلام من خـلال أبواب وفصول متعدّدة.

وكان نصيـب الإمام المهـدي الركنَ الـرابع والأخير مـن الكتاب

حيث تناول معظم الأخبار والروايات المتّصلة به، مستوفياً من خلال ذلك، الظروف والأحداث التي عاصرها أبّان حضوره الظاهري، منتقلاً منها إلى ما رافق غيبته الصغرى والكبرى، وما يتصل بها، والأحداث والوقائع التي ستصاحب ظهوره المنتظر.[١]

بين إعلام الورى وربيع الشيعة

من غريب الأمر انّ كتاباً واحداً سُمّي باسمين ونسب إلى شخصين، وما هذا إلاّ كتاب «إعلام الورى» الذي هو من مؤلفات الطبرسي، فقد نسب إلى السيد ابن طاووس وسمّي باسم «ربيع الشيعة»، فالكتابان يختلفان اسماً ويتحدان من البداية إلى النهاية.

ولذلك نرى أنّ العلاّمة المجلسي توقّف عن النقل عن كتاب ربيع الشيعة، قال: وتركنا منها ـ من كتب ابن طاووس ـ كتاب ربيع الشيعة لموافقته لكتاب «إعلام الورى» في جميع الأبواب والترتيب، وهذا ما يقضى منه العجب!![٢]

وقال الكاظمي في تكملته: وقد وقفت على «إعلام الورى» للطبرسي و ربيع الشيعة لابن طاووس وتتبّعتها من أوّلها إلى آخرها

---

١. إعلام الورى: ١/ ٢١، المقدمة.

٢. بحارالأنوار: ١١/ ٣٠.

فوجدتهما واحداً من غير زيادة ونقصان، ولا تقديم ولا تأخير أبداً إلاّ الخطبة.[١]

إنّ انتساب الكتاب إلى الطبرسي أمر قطعي لا سترة عليه، فلا بدّ من تبيين وجه انتسابه إلى السيد ابن طاووس.

وقد تخلّص شيخنا المجيز من هذه المشكلة بأنّ للنساخ دوراً في المقام فقال ما هذا نصّه:

أقول: الممارس لبيانات السيد ابن طاووس لا يرتاب في أنّ «ربيع الشيعة» ليس له والمراجع له لا يشكّ في اتّحاده مع «إعلام الورى» للطبرسي، وقد احتمل بعض المشايخ كون منشأ هذه الشبهة أنّ السيد ابن طاووس حين شرع في أن يقرأ على السامعين كتاب إعلام الورى هذا حمد الله، وأثنى عليه وصلّى على النبيّ وآله صلوات الله عليهم على ما هو ديدنه، ثمّ مدح الكتاب وأثنى عليه بقوله: «إنّ هذا الكتاب ربيع الشيعة» والسامع كتب على ما هو ديدنه هكذا«يقول الإمام ــ و ذكر ألقابه واسمه إلى قوله : انّ هذا الكتاب ربيع الشيعة» ثمّ كتب كلّما سمعه عنه من الكتاب إلى آخره، فظنّ من رای النسخة بعد ذلك أنّ «ربيع الشيعة» اسمُه وأنّ مؤلّفه هو السيد ابن طاووس.[٢]

---

١. تكملة الرجال:١/ ١١.

٢. الذريعة:٢/ ٢٤١ برقم ٩٥٧.

وحكى شيخنا في خاتمة المستدرك احتمالاً آخر عن بعض مشايخه، وهو أنّ السيد وجد «إعلام الورى» ناقصاً من أوّله، فاستحسنه وكتبه بخطه من غير اطّلاع له على اسمه أو اسم مؤلّفه، فكتب عليه مدحاً له أنّ هذا الكتاب ربيع الشيعة، ولما وجد بعده بخطه فظنّ أنّه تأليفه وأنّه سماه بربيع الشيعة، كما وقع نظير ذلك في «نزهة الناظر في الجمع بين الأشباه والنظائر» حيث استحسنه يحيى بن سعيد و استنسخه بخطه وأسقط منه الخطبة الطويلة لخلوها عن الفائدة، فلمّا وجد بعده بخطه في كتبه ظنّ أنّه تأليفه ونسب إليه.

مشايخه وتلامذته

تتلمذ الإمام الطبرسي على لفيف من العلماء، وقد استقصى ذكرهم السيد الأمين في «أعيان الشيعة»، منهم:

١ . أبو علي بن شيخ الطائفة الطوسي.

٢ . أبو الوفاء عبد الجبار بن علي المقري الرازي عن الشيخ الطوسي.

٣. الحسن بن الحسين بن الحسن بن بابويه القمي الرازي، جدّ منتجب الدين صاحب الفهرس.

٤ . الإمام موفق الدين بن الفتح الواعظ البكر آبادي عن أبي علي

الطوسي.

٥. أبو طالب محمد بن الحسين الحسيني القصبي الجرجاني.

٦. أبو الفتح عبد الله بن عبد الكريم بن هوازن القشيري.

٧. أبو الحسن عبيد الله محمد بن الحسين البيهقي.

٨. الشيخ جعفر الدوريستي.

وأمّا تلامذته فقد روى عنه جملة من العلماء الأعلام منهم:

١. ولده رضي الدين أبو نصر الحسن بن الفضل صاحب كتاب مكارم الأخلاق.

٢. منتجب الدين صاحب الفهرست.

٣. أبو جعفر محمد بن علي بن شهر آشوب صاحب المناقب.

٤. القطب الراوندي.

٥. السيد فضل الله الراوندي.

٦. عبد الله بن جعفر الدوريستي.

٧. شاذان بن جبرئيل القمي.

٨. مهدي بن نزار القائيني.

٩. شرفشاه بن محمد بن زيادة الافطسي.

وغيرهم ممّن عُرِفوا بكونهم من تلامذته أو ممن عدوه من شيوخهم.[1]

كلمات العلماء في حقّه

هذه هي السيرة الذاتية للإمام الطبرسي، ومع الإحاطة بها، فنحن في غنى عن نقل كلمات الأعاظم في حقّه، فانّك لمست منزلة الشيخ ومكانته عن كثب، وبالتالي نحن في غنى عن مدح وإطراء الآخرين له، ومع ذلك فلأجل أن لايرمينا القارئ بالغفلة عن هذا الجانب، نأتي ببعض كلمات الأعلام.

قال الشيخ منتجب الدين تلميذه والراوي عنه في فهرسته: ثقة، فاضل، ديّن، عين.[2]

وقال الحرّ العاملي في «أمل الآمل»: الشيخ الإمام أمين الإسلام أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي،ثقة، فاضل، ديّن، عين، له تصانيف وذكر جملة منها.[3]

وقال السيد التفريشي: فاضل، ديّن، عين، من أجلاّء هذه

١. أعيان الشيعة، بالقطع الكبير:٨/ ٣٩٩.

٢. فهرست منتجب الدين برقم ٣٣٦.

٣. أمل الآمل:٢/ ٢١٦، برقم ٦٥٠.

الطائفة، له تصانيف حسنة.[١]

وقال صاحب المقابس: الشيخ الأجل الأوحد، والأكمل الأسعد، قدوة المفسرين وعمدة الفضلاء المتبحرين: أمين الدين أبي علي.[٢]

وقال الخوانساري في روضاته: الشيخ الشهيد السعيد، الحبر الفقيه الفريد، الفاضل العالم المفسّر المحدّث الجليل، الثقة الكامل، النبيل الفاضل.[٣]

وقال السيد الأمين في أعيانه: إنّ فضل الرجل وجلالته وتبحره في العلوم ووثاقته أمر غني عن البيان.[٤]

وقال الزركلي في أعلامه: وانّه مفسّر، محقّق، لغوي، من أجلّاء الإمامية.[٥]

وقال عمر رضا كحالة: بأنّه مفسر مشارك في بعض العلوم، ثمّ أشار إلى جملة من آثاره.[٦]

---

١. نقد الرجال: ٢٢٦.

٢. مقابس الأنوار: ١٠.

٣. روضات الجنات: ٥/ ٣٥٧ برقم ٥٤٤.

٤. أعيان الشيعة: ٨/ ٣٩٨.

٥. الاعلام: ٥/ ٤٨.

٦. معجم المؤلفين: ٨/ ٦٦.

إلى غير ذلك من الكلمات والإطراءات التي جاءت في المعاجم وفي مقدمة الطبعة اللبنانيّة والمصرية لمجمع البيان.

حديث الجري والتطبيق في «مجمع البيان»

إنّ القرآن الكريم معجزة خالدة يشق طريقه للأجيال بمفاهيمه ومعانيه السامية، فهو حجّة إلهية في كلّ عصر وجيل في عامّة الحوادث المختلفة صوراً والمتحدة مادة، ومع ذلك نرى أنّ لفيفاً من الأحاديث تذكر نزول قسم كبير من الآيات في حقّ أئمّة أهل البيت عليهم السلام ،وبذلك يتجلّى في نظر بعض السُّذَّج انّ القرآن لدى الشيعة الإمامية كتاب طائفي، حتّى أنّ الكاتب الدكتور أحمد محمود صبحي في كتابه «نظرية الإمامة لدى الشيعة الاثني عشرية» يقترح على علماء الشيعة أن ينقِّحوا تفاسيرهم لكتاب الله من تلك الروايات ويقول: أوّلها تفسير علي بن إبراهيم القمي الذي جعل من القرآن كتاباً حزبياً كأنّه نزل للشيعة وحدهم.[1]

ولكنّ الكاتب كبعض أسلافه خلطوا بين تطبيق الآية على أوضح مصاديقها وبين نزولها في حقّ واحد من أئمّة أهل البيت، فانّ أكثر ما ورد في ذلك من قبيل التطبيق لا أنّها نزلت في حقّ شخص خاص، وإن

١ . نظرية الإمامة: ٥٠٥.

كانت هناك آيات نـزلت في حقّ الإمام علي عليه السلام بالخصوص، ومع ذلك فأكثر ما يتراءىٰ فيها الفكر الطائفي من باب الجري والتطبيق، وهذا هو الذي عالج به شيخنا الإمام المفسر ذلك الجانب في مجال التفسير، نذكر منها نموذجاً:

يقول في تفسير قوله: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾.

وقيل في الصراط المستقيم وجوه:

أحدها: انّه كتاب الله، وهو المروي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم و عن علي عليه السلام وابن مسعود.

وثانيها: انّه الإسلام، وهو المروي عن جابر و ابن عباس.

وثالثها: انّه دين الله الذي لا يقبل من العباد غيره، عن محمد بن الحنفية.

والرابع: انّه النبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة القائمون مقامه، وهو المرويّ في أخبارنا.

والأولى حمل الآية على العموم حتّى يدخل جميع ذلك فيه، لأنّ الصراط المستقيم هو الدين الذي أمر الله به من التوحيد والعدل، وولاية من أوجب الله طاعته.[1]

وقد سلك هذا المنهج بعد الإمام الطبرسي، المفسر الكبير العلاّمة

١. مجمع البيان: ١ / ٤٨، ط مصر.

الطباطبائي في تفسير «الميـزان» فانّه حمل أكثر هـذه الروايات على الجري والتطبيق، كيف و هذا الإمام الصادقعليه السلام يقول: «إذا نزلت آية على رجل ثمّ مات ذلك الرجل ماتـت الآية، مات الكتاب، ولكنّه حي يجري فيمن بقي كما جرى فيمن مضى».[١]

وهذا النوع من التطبيق يسمّى التأويـل في مقابل التنزيل، ولأجل أن نرى نموذجاً من هذا النوع من التأويل نذكر ما يلي:

نص القرآن الكريم بأنّ النبي صلى الله عليه وآله بشخصه منذر كما نصّ بأنّ لكلّ قوم هاد، و قال: ﴿إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُـلِّ قَومٍ هادٍ﴾[٢]، و قد قـام النبي بتعيين مصـداق الهادي في حـديثه، وقـال: «أنـا المنـذر وعلي الهادي إلى أمـري» و لكن المصـداق لا ينحصر بعلي، بل الهداة الـذين تـواردوا عبر الزمـان هم المصاديـق للآية المبـاركة، ولذلـك نرى أنّ الإمام البـاقرعليه السلام يقـول: «رسول الله المنـذر، وعلي الهادي، وكلّ إمـام هاد للقـرن الذي هـو فيه».[٣]

١. نور الثقلين: ٢/ ٤٨٣، برقم ٢٢.

٢. الرعد: ٧.

٣. نور الثقلين: ٢/ ٤٨٢و ٤٨٥.

وفاته

عاش المترجم بالمشهد الرضوي في خراسان مدة طويلة ثمّ انتقل إلى مدينة سبزوار من مدن خراسان سنة ٥٢٣هـ، و بها ألّف كتابه هذا مجمع البيان و بها توفّي سنة ٥٤٨هـ، ثمّ نقل جثمانه إلى المشهد الرضوي حيث دفن، و قبره معروف يزار.

يقول السيد حسين البروجردي مؤلف «نخبة المقال في معرفة علم الرجال»:

وفضل بن الحسن بن فضل	أبو علي الطبرسي العدل
شيخ بن شهر آشوب عنه ينشر	مفسر عام الوفاة «محشر»

فقوله «محشر» إشارة إلى عام وفاته فانّه بالحساب الأبجدي يكون ٥٤٨هـ.

بيت الطبرسي شجرة طيّبة

إنّ بيت الطبرسي بيت عامر بالعلم والتقى و إلاّ فلا غرو أن نقول إنّه من مصاديق قوله سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُها ثابتٌ وفَرْعُها في السَّماء* تُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّها وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثالَ لِلنّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُون﴾.[1]

---

١. إبراهيم: ٢٤ـ ٢٥.

فمفسرنا الكبير شجرة طيبة تؤتي أُكلهـا كلّ حين، وهكذا فروعها وأغصانها فقد ترك ذريـة طيّبة تعد نجوماً في سماء العلم نـذكر منها ولده وحفيده، أعني بهما :

١ . ولـده البار الشيـخ رضي الديـن أبو نصر الحسـن بن الفضـل مؤلف كتاب «مكارم الأخلاق» الذي طبع في إيران ومصر مراراً.

يعرّفه شيخنا المجيز الطهراني بقوله: «مكارم الأخلاق» للشيخ أبي نصر رضي الدين الحسن بن الفضل بن الحسن الطبرسي وقد أخذ فيه عن الآداب الدينية لوالده المفسر وأورد فيه بعض ما في الآداب، رتّبه على ١٢ بابـاً على أُسلوب المحدّثين مـن الشيعة، أوّلـه: «الحمد لله الواحـد الأحد الصمد» ولولده علي تتميمه الموسوم بـ«مشكاة الأنوار».[١]

٢ . حفيده الشيخ أبو الفضل علي بن الشيخ رضي الدين أبي نصر الحسن بن أبي علي المفسر الطبرسي الملقب بـــ «أمين الإسلام الفضل بن الحسن بن الفضل الطبرسي» صاحب «مشكاة الأنوار» و هو ممّا ينقل عنه في البحار قال:وهو كتاب ظريف.[٢]

قال الأفندي التبريـزي: وكان ﷺ وولـده رضي الديـن أبـو نصر حسن بن الفضل صاحب «مكارم الأخلاق»، وسبطه[٣]، علي بن الحسن صاحـب «مشكاة الأنـوار» وسائر سلسلتـه وأقربـاؤه من أكـابر العلماء،

---

١. الذريعة:٢٢/ ١٤٦.

٢. الذريعة: ٢١/ ٥٤.

٣. الصحيح «حفيده» لأنّه ابن ابنه، لا ابن بنته.

وعندي انّ الشيخ أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي صاحب الاحتجاج أيضاً من أقربائه.[١]

ما نسب في حقّ الطبرسي من أوهام

ثمّ إنّه نسب إلى الطبرسي أُمور لم تثبت صحّتها ، والمصدر له هو كتاب رياض العلماء للأفندي التبريزي نشير إليها :

١. انّه مات شهيداً

قال الأفندي التبريزي : قد رأيت نسخة من «مجمع البيان» بخط الشيخ قطب الدين الكيدري ، وقد قرأها نفسه على الخواجه نصيرالدين الطوسي ، ثمّ إنّ على ظهرها بخطه أيضاً هكذا : تأليف الشيخ الإمام الأجل السعيد الشهيد وهو صار شهيداً .[٢]

وهذا ممّا لم نقف عليه في كتاب قبل تأليف الرياض، وقد توفّي الأفندي حوالي عام ١٠٣٤هـ و توفّي صاحب مجمع البيان عام ٥٤٨هـ، و بينهما قرابة خمسة قرون، فلو كان المترجم له توفّي شهيداً لبان وجاء ذكره في كتب التراجم.

نعم ذكره العلاّمة الأميني في كتاب «شهداء الفضيلة» من تلك الزمرة، وقال: صرّح بشهادته في الروضات والرياض.[٣]

---

١. رياض العلماء:٤/ ٣٤١.

٢. رياض العلماء:٤/ ٣٤٤.

٣. شهداء الفضيلة:٤٦.

٢. انّه قام من القبر حيّاً

ومن الأوهـام التي حيكت حول حيـاة المؤلّف ما ذكـره الأفندي أيضاً وتبعه المحـدّث القمي في كتابـه «الفوائد الرضويـة»، حيث قال الأوّل: ومن عجيـب الأمر بـل من غـريب كـراماتـه ـ قـدس الله روحه القدوسي ـ ما اشتهر بين الخـاص والعام أنّه قد أصابتـه السكتة، فظنّوا به الـوفاة، فغسّلوه وكفنوه ودفنوه ثـمّ رجعوا، فأفاق فـي القبر وقد صار عـاجزاً عن الخروج أو الاستعـانة بأحـد لخروجه، فنذر فـي تلك الحالـة بأنّ الله إن خلّصه مـن هذه البلية ألّف كتـاباً في تفسيـر القرآن، فاتّفق انّ بعض النبّاشين قد قصد نبشَ قبره لأجل أخذ كفنه، فلمّا نبش قبره وشرع في نزع كفنه أخذ بيد النبّاش، فتحيّر النبّاش وخاف خوفاً عظيماً، ثمّ تكلّم معه، فزاد اضطراب النبّاش وخـوفه، فقال له: لا تخف أنا حيّ وقد أصابني السكتة فظنّـوا بي الموت ولذلك دفنوني، ثمّ قام من قبره واطمأن قلب النبّاش، ولـم يكن قادراً على المشي لغاية ضعفه التمس من النبّاش أن يحمله على ظهره ويبلغه إلى بيته، فحمله وجاء به إلـى بيته، ثمّ أعطاه الخلعـة وأولاه مالاً جزيلاً، وأنـاب النباش على يده ببركته عن فعله ذلك القبيح وحسن حال النبّاش، ثمّ إنّه بعد ذلك قد وفى بنذره و شرع في تأليف كتـاب «مجمع البيان» إلى أن وفّقه الله

تعالى لإتمامه.[١]

وفي هامش نسخة المؤلف التعليق التالي، وقد ينسب هذا إلى المولى فتح الله الكاشاني صاحب التفسير الكبير الفارسي وقبره بهمدان، وهذه الحكاية سمعت من أهالي همدان في حقّه.

أقول: إنّي لا أنكر صحّة الواقعة فإنّها أمر ممكن، وقد ينقل عن المرتاضين أُمور أكثر عجباً من ذلك، ولكن المفسر الكبير لم يكن من المرتاضين أوّلاً، ولو صحّت الواقعة كان عليه أن يذكرها في ديباجة كتابه ثانياً، إذ ليست الواقعة أمراً حقيراً حتى يمر عليها دون أن يذكرها بل كان على الآخرين أيضاً نقلها.

وأوّل من شكّك في صحّتها هو المحدّث النوري (المتوفّى ١٣٢٠هـ) فقال في مستدركه:

ومع هذا الاشتهار لم أجدها في مؤلّف أحد قبله، وربّما نسب إلى العالم الجليل المولى فتح الله الكاشاني صاحب تفسير منهج الصادقين.[٢]

وقد نقل شيخنا المدرس الخياباني(١٢٩٤ـ ١٣٧٣هـ) مؤلّف «ريحانة الأدب» في كتابه هذا نظير هذه الواقعة في حقّ محمد هادي بن

---

١. رياض العلماء: ٤/ ٣٥٧ـ ٣٥٨. ولاحظ الفوائد الرضوية: ٣٥١، ولكنّه نقل عبارة شيخه في «مستدرك الوسائل» وهو يعرب عن تردده في صحّة المطلب.

٢. مستدرك الوسائل: ٤٨٧، الطبعة الحجرية.

ملا صالح المازندراني.[١]

ولو كان الذهبي مؤلف «التفسير والمفسّرون» واقفاً على أنّ بعض مشايخ الشيعة تلقّوا الواقعة أمراً موهوماً لم يذكرها بطعن حيث قال: ومن العجيب انّهم يذكرون قصة في غاية الطرافة والغرابة في سبب تأليفه لتفسيره «مجمع البيان» الذي نحن بصدده فيقولون: ومن عجيب أمر هذا الطبرسي، بل من غريب كراماته وما اشتهر بين الخاص والعام انّه قد أصابته السكتة ... الخ.[٢]

٣. انّه رأى موسى عليه السلام في منامه

ذكر الأفندي في ترجمته انّه من جملة مقاماته بعض مناماته الطريفة، وقد حكاه نفسه في كتابه «مجمع البيان في تفسير سورة طه أو سورة ... الخ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ﴾[٣] الآية، من رؤيته موسى كليم الله تعالى و مباحثته صلوات الله عليه بحضرة النبي ﷺ في حال المنام، وشرح ذلك انّه قال: «رأيت رسول الله ﷺ في المنام و كان معه موسى كليم الله، فسأل موسى رسول الله عن معنى قوله: «علماء أُمّتي كأنبياء بني إسرائيل».

---

١. ريحانة الأدب: ٤/ ٣٧ـ٣٨.

٢. التفسير والمفسرون: ٢/ ١٠٠.

٣. طه: ١٧.

وقال: كيف قلت: إنّ علماء أُمّتك مثل أنبياء بني إسرائيل مع علوهم وكثرة علومهم،وأيّ العلماء أردت من قولك؟ فدخلتُ في تلك الحالة على رسول الله ﷺ فأشار إلى جانبي وقال: هذا واحد منهم. فلمّا سمع موسى عليه السلام ذلك من رسول الله توجّه إليّ وسألني.

فقال موسى: أنا سألتك عن فلان وأجبت بفلان وأطلت في الكلام، فقلتُ في جواب موسى عليه السلام :إنّ الله تعالى قد سألك عن عصاك بقوله: ﴿وَما تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا مُوسىٰ﴾ فلأي سبب أطلت في جوابه تعالى و قلت: ﴿هي عَصايَ أَتَوَكأ عَليها وَأَهُشُّ بها عَلى غَنَمي وَلِيَ فِيها مَآرِبُ أُخرى﴾ وكان أن يكفيك أن تقول في جوابه عزّ من قائل «هي عصاي».

فقال موسى عليه السلام في جوابه: نعم ما قلت، ثمّ تلطّف بي و قال: صدق رسول الله في قوله: «علماء أُمتي كأنبياء بني إسرائيل».[1]

هذا وليس ما بأيدينا من نسخ المجمع، أثر من هذا المقال.[2]

---

١. رياض العلماء: ٤/ ٣٥٨ـ٣٥٩.

٢. فقد راجعنا إلى هذه الطبعات التالية:

١. الطبعة الحجرية المطبوعة بإيران عام ١٢٨٢هـ.

٢. طبعة صيدا، المطبوعة فيها عام ١٣٥٤هـ.

٣. الطبعةالإسلامية بطهران، عام ١٣٨٠هـ.

٤. طبعة مصر، عام ١٣٩٤هـ.

٥. طبعة دار المعرفة ببيروت١٤٠٦هـ.

ولم أتوفق لمراجعة النسخ الخطية في المكتبات.

بعض الآراء الكلامية

للشيخ الطبرسي

يُعدّ الشيخ الطبرسي في الرعيل الأوّل من مفسّري القرآن العظيم و في الـوقت نفسـه، هو إمـام مقـدام في حقل الكـلام والعقائد والمعـارف فتفسيره هذا بحر عظيـم يغترف منه كلّ من حاول تفسير الـذكر الحكيم والمعارف التـي جاء بها القرآن العظيـم بثنايا آيـاته في مختلف سـوره، فها نحن نذكر في هـذا الفصل شيئاً من آرائه ونظرياتـه، ليكون كنموذج لما لم نذكـر. وربما يقال: انّ الموضوعـات الكلاميـة في مجمع البيان ينـاهز٣٣٥ موضوعاً، وقد بحث عنها المؤلّف، إسهاباً تارة، وإيجازاً أُخرى.

وقد أُشير إلى كثيرمن هذه الموضوعات في المجموعة التي نشرناها في الجزء الأوّل من مجلـة علم الكـلام، وقد قـام بتدويـن هذه المجمـوعة لفيف من طلاب مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام في قسم علم الكلام، شكر الله مساعيهم.

١

الجهاد العلمي جهاد أكبر

يعتقد شيخنا الطبرسي بأنّ الجهاد العلمي جهاد أكبر، لأنّه جهاد في طريق مقارعة المبطلين ودفع شبه الأعداء، يقول في تفسير قوله سبحانه: ﴿وَجاهِدْهُمْ بِهِ جِهاداً كبِيراً﴾.[١]

وفي هذا دلالة على أنّ من أجلّ الجهاد وأعظمه منزلة عند الله سبحانه جهاد المتكلّمين في حلّ شبه المبطلين وأعداء الدين، ويمكن أن يتأوّل عليه قوله: رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر.[٢]

---

١. الفرقان: ٥٢.

٢. مجمع البيان: ٧/ ٢٧٣، دار المعرفة، بيروت.

٢

رفض التقليد في أُصول الدين

الإسلام عقيدة وشريعة، فـا لمطلوب في الأوّل الاعتقاد الجازم، كما أنّ المطلوب في الثاني هـو العمل بالأحكام، ولماّ كانت الأُصـول أساساً للشريعـة دعـا القـرآن الكـريـم إلى تحصيـل العلـم ورفـض التقليـد فيها،ولذلك كثيراً ما نرى أنّه ينـدِّد با لمشركين في تقليدهـم للآباء في عبادة الأصنـام، وقد استفـاد شيخنا الطبرسي لـزوم تحصيـل العلم في الأُصـول والمعارف من آيات كثيرة ربما لا نتمكن من إيـراد جميعها وما قاله حولها، بل نقتصر على ما يلي:

يقول في تفسير قوله سبحانه: ﴿لَعَلَّكُمْ بِلِقاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنون﴾[1] :

أي لكي توقنوا بالبعث والنشور وتعلموا أنّ القادر على هذه الأشياء قادر على البعـث بعـد الموت، وفي هـذا دلالـة على وجـوب النظـر المؤدّي إلى معرفة الله تعـالى وعلى بطلان التقليد، ولولا ذلك لم يكـن لتفصيل الآيات

---

١. الرعد:٢.

معنى.[١]

وقال عند تفسير قوله: ﴿لولا يأتون عليهم بسلطان بين﴾[٢] أي هلا يأتون على عبادتهم غير الله بحجّة ظاهرة، وفي هذا ذم وزجر للتقليد وإشارة إلى أنّه لا يجوز أن يقبل دين إلاّ بحجّة واضحة.[٣]

وقال عند تفسير قوله: ﴿قُلْ هاتُوا بُرهانكُم﴾.[٤]

وفي هذا دلالة على فساد التقليد، لأنّه طالبهم بالحجة على صحة قولهم، والبرهان هو الدليل المؤدّي إلى العلم.[٥]

---

١. مجمع البيان:٦/ ٤٢١.

٢. الكهف:١٥.

٣. مجمع البيان:٦/ ٧٠٠.

٤. الأنبياء:٢٤.

٥. مجمع البيان:٧/ ٧١.

٣

ضرورة معرفة الله

تعدّ معرفة الله سبحانه من أُمّهات المسائل الكلامية، التي حازت مساحة شاسعة من الأبحاث الكلامية، واستقطبت اهتمام كبار العلماء والمفكّرين لا سيّما شيخنا الطبرسي حيث قال عند تفسير قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إلى الَّذي حاجّ إبراهيمَ في رَبّهِ أن آتاهُ اللهُ المُلكَ إذْ قالَ إبراهيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قالَ أَنَا أُحْيِي وَأُميتُ قالَ إبْراهيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِها مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَومَ الظّالِمين﴾.[1]

وفي هذه الآية دلالة على أنّ المعارف غير ضرورية، إذ لو كانت كذلك لمّا صحت المحاجّة في إثبات الصانع، وفيها دلالة على فساد التقليد وحسن الحجاج.[2]

---

١. البقرة:٢٥٨.

٢. مجمع البيان:٢/ ٦٣٦.

وقال أيضاً عند قوله: ﴿وَإِذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا إِلى ما أَنْزَل اللهُ وَإِلى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنا ما وَجَدْنا عَلَيه آباءَنا أَوَ لَوْ كانَ آباؤهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُون﴾.[١]

وفي هذه الآية دلالة أيضاً على وجوب المعرفة وأنّها ليست بضرورية على ما قاله أصحاب المعارف، فانّه سبحانه بيّن الحجاج عليهم فيها ليعرفوا صحّة ما دعاهم الرسول إليه، ولو كانوا يعرفون الحقّ ضرورة لم يكونوا مقلّدين لآبائهم، ونفى سبحانه عنهم الاهتداء والعلم معاً، لأنّ بينهما فرقاً، فانّ الاهتداء لا يكون إلاّ عن حجّة وبيان، والعلم قد يكون ابتداء عن ضرورة.[٢]

١. المائدة:١٠٣.

٢. مجمع البيان:٣/ ٣٩١.

٤

برهان التمانع

وحاصلـه: انّ وحدة النظام وانسجـامه وتـلاحمه لا تتحقّق إلاّ إذا كان الكون بأجمعه تحت نظر حاكم ومدبّر واحد، ولو خضع الكون لإدارة مدبّرين لما كان من النظام الموحّد أي أثر، لأنّ تعدّد المدبّر والمنظم بحكم اختـلافهما في الـذات أو في المصنّفات والمشخصـات يستلـزم بـالضرورة الاختلاف في التدبير والإدارة، ويستلـزم تعدّد التدبير فناء النظـام الموحّد وغيابه.

وبعبارة أُخرى: انّ المدبرين إن كانـا متساويين من كلّ الجهات لم يكن هنا اثنينية في المدبِّر، و إن لم يكونـا متساويين بل كان هناك اختلاف بينهما في الذات أو في عوارضها، فالاختلاف فيهـا يؤثر اختلافاً في التدبير وهو خلاف الحس.

وقـد استفـاد مـن هذا البرهـان شيخنـا المفسّر حينما فسر قـولـه سبحانه: ﴿ لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلاّ اللهُ لَفَسَدَتا﴾[1] وقال في تقرير ذلك:

---

١. الأنبياء: ٢٢

وهذا هو دليل التمانع الذي بنى عليه المتكلّمون مسألة التوحيد.

وتقرير ذلك: انّه لو كان مع الله سبحانه إله آخر لكانا قديمين، والقدم من أخصّ الصفات، فالاشتراك فيه يوجب التماثل، فيجب أن يكونا قادرين عالمين حيّين، ومن حقّ كلّ قادرين أن يصح كون أحدهما مريداً لضد ما يريده الآخر من إماتة وإحياء، أو تحريك وتسكين، أو إفقار وإغناء، ونحو ذلك.

فإذا فرضنا ذلك فلا يخلو إمّا أن يحصل مرادهما، وذلك محال؛ و إمّا أن لا يحصل مرادهما، فينتقض كونهما قادرين؛ وإمّا أن يقع مراد أحدهما ولا يقع مراد الآخر فينتقض كون من لم يقع مراده من غير وجه منع معقول قادراً، فإذاً لا يجوز أن يكون الإله إلاّ واحداً.[١]

وما قرره وإن كان رائعاً، غير انّا نقوم بإيضاحه بوجه آخر ونقول هنا سؤال وإجابة:

السؤال

إنّ الأرباب المفروضين وإن كانوا متكثري الذوات ومتغايريها ، ويؤدّي ذلك بالطبع إلى اختلاف الأفعال وتدافعها، لكن من الممكن أن يتواطؤا على التسالم وهم عقلاء، ويتوافقوا على التلاؤم رعاية لمصلحة النظام الواحد وتحفظاً على بقائه. هذا هو الإشكال.

---

١. مجمع البيان:٧/ ٧٠.

الجواب

وأمّا الإجابة فبوجود الفرق الواضح بين العقلاء والأرباب المفروضين، فإنّ عمل العقلاء مبني على علومهم، وليست هي إلاّ قوانين كلية مأخوذة من النظام الخارجي الجاري في العالم. فللنظام الخارجي نوع تقدّم على تلك الصور العلمية وهي تابعة لنفس النظام الخارجي، فعند ذلك يتصالح العقلاء المتنازعون حسب ما تنكشف لهم المصلحة، فيأخذون بالطريق الوسط الذي تجتمع فيه مصالحهم وأغراضهم وغاياتهم. هذا هو حكم العقلاء المتنازعين أوّلاً فالمتنازلين ثانياً حسب تطابق أعمالهم على النظام السائد.

وأمّا الأرباب المفروضون فالأمر فيهم على العكس، لأنّ الكيفية الخارجية تتبع علمهم، لما عرفت من أنّ التدبير ليس منفكّاً عن الخلق والإيجاد، وليس شأنهم شأن مُدَراء الدوائر والمنشآت حيث إنّ شأنهم التبعية للسنن السائدة فيها كما عرفت، فإنّ تدبير الآلهة تدبير تكويني ينشأ عن الخلق والإيجاد ولو بقاءً لا حدوثاً، فعند ذلك يكون الخارج تابعاً لعلمهم لا أنّهم يتّبعون الخارج و السنن الموجودة فيه. وعلى ضوء ذلك فلا معنى للتوافق في التدبير.

وباختصار هناك فرق بين تدبير خال عن الإيجاد والخلق كرئيسين بالنسبة إلى مرؤوسيهما، فيمكن تصالحهما على كيفية الاستفادة منها، وبين

تدبير ملازم للخلق والإيجاد و إدامة الحيـاة واستمرار الوجود، فالرئيس فـي الأوّل يقتفي السنن السـائدة والرئيـس فـي الثانـي يـوجد السنـن ويبدعها.[1]

١. لاحظ الإلهيات: ٢/ ٦٦ـ٦٧.

٥

برهان النظم

إنّ برهان النظم من أوضح البراهين على أنّ العالم مخلوق خالق عالم حكيم عارف بسنن الحياة وانسجام النظام وبقائه، وقد استخدمه القرآن الكريم في غير واحد من آياته على أنّ العالم له صانع قدير عليم، يقول الطبرسي في تفسير قوله سبحانه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ لآياتٍ لأُولِي الأَلْبابِ﴾.[1]

قال‌ﷺ في تقرير البرهان: وجه الدلالة في خلق السماوات والأرض انّ وجودهما متضمن بأعراض حادثة، وما لا ينفك عن الحادث فهو حادث مثله، والمحدَث لابدّ له من محدِث يحدثه، وموجِد يوجده، فدلّ وجودُهما وحدوثهما على أنّ لهما محدثاً قادراً، ودلّ إبداعهما بما فيهما من البدائع والأُمور الجارية على غاية الانتظام والاتّساق على أنّ مُبدِعَهما عالم، لأنّ الفعل المحكم المنتظم لا يصحّ إلاّ من عالم، كما أنّ الإيجاد لا

---

١. آل عمران: ١٩٠.

يصحّ إلاّ من قادر، و دلّ ذلك أيضاً على أنّ صـانعهما قديم لم يزل، لأنّه لو كان محدثاً لاحتاج إلى محدث فيـؤدّي إلى التسلسل، ووجه الدلالة في تعاقب الليل والنهار أنّ في ترادفهما على مقدار معلوم لا يزيدان عليه ولا ينقصان منه، ونقصان كلّ واحد منهما عـن الآخر في حال وزيادته عليه في حال، وازديـاد أحدهما بقدر نقصـان الآخر، دلالة ظـاهرة على أنّ لهما صانعاً قادراً حكيماً لا يدركه عجز ولا يلحقه سهو.[1]

١. مجمع البيان: ٢/ ٩٠٩.

٦

امتناع رؤية الله

في الدنيا والآخرة

اتّفق المسلمون على امتناع رؤية الله في الدنيا غير أنّ الأشاعرة تبعاً لأهل الحديث جوّزوا رؤيته سبحانه في الآخرة متمسّكين بقوله سبحانه: ﴿وُجُوهٌ يَومَئِذٍ ناظِرَةٌ * إِلىٰ ربها ناظِرَة﴾[1]، وقد أوضحنا دلالة الآية على أنّها لا تدلّ على الرؤية حتّى ولو قلنا إنّ النظر بمعنى الرؤية، لأنّه سبحانه ينسب النظر إلى الوجوه لا العيون، ويقول: ﴿وُجُوهٌ يَومَئِذٍ ناظِرَة﴾، فمن أراد الوقوف على تفصيله فليرجع إلى كتابنا الإلهيات.[2]

غير أنّ شيخنا الطبرسي استدلّ على امتناع الرؤية بالدليل العقلي وقال:

قوله سبحانه: ﴿إلى ربّها ناظرة﴾ اختلف فيه على وجهين:

---

١. القيامة: ٢٢ـ٢٣.

٢. الإلهيات: ٢/ ١٣٣.

أحدهما: انّ معناه نظر العين.

الثاني: انّه الانتظار.

واختلف مَن حمله على نظر العين على قولين:

١. المراد النظر إلى ثواب ربّها ونعيم الجنة.

٢. النظر بمعنى الرؤية، والمعنى تنظر إلى الله معاينة. ثمّ أخذ في ردّ الاحتمال بقوله:

وهذا لا يجوز، لأنّ كلّ منظور إليه بالعين، مشار إليه بالحدقة واللحاظ، والله يتعالى عن أن يشار إليه بالعين، كما يجلّ سبحانه عن أن يشار إليه بالأصابع، وأيضاً فانّ الرؤية بالحاسة لاتتم إلاّ بالمقابلة والتوجه والله يتعالى عن ذلك، بالاتّفاق، وأيضاً فانّ رؤية الحاسّة لا تتمّ إلاّ باتصال الشعاع بالمرئي والله منزّه عن اتّصال الشعاع به على أنّ النظر لا يفيد الرؤية في اللغة، فانّه إذا علق بالعين أفاد طلب الرؤية كما أنّه إذا علق بالقلب أفاد طلب المعرفة، بدلالة قولهم: نظرت إلى الهلال فلم أره، فلو أفاد النظر الرؤية لكان هذا القول ساقطاً متناقضاً، وقولهم: ما زلت أنظر إليه حتّى رأيته، والشيء لا يجعل غاية لنفسه فلا يقال: مازلت أراه حتّى رأيته، ولأنّا نعلم الناظر ناظراً بالضرورة، ولا نعلمه رائياً بالضرورة بدلالة انّا نسأله هل رأيت أم لا؟[1]

---

١. مجمع البيان: ١٠/ ٦٠١.

٧

الله عادل

اتّفق المسلمون على أنّه سبحانـه عادل واختلفوا في معنى العدل، فقالت الإمامية والمعتزلة: إنّ العقل الحصيف يدرك معنى العدل والظلم والحسن والقبح ، فهـو سبحانه بحكم كـونه حكيماً يفعل ما هـو الحسن عند العقل ويترك ما هو القبيح عنده والعدل حسن والظلم قبيح.

وقالت الأشاعرة : إنّه سبحانـه عادل بمعنى أنّ كلّ ما يفعله فهو عدل، فلـو عذّب الطـائع فهو عدل، لأنّ العـالم ملكه والمالـك مختار في التصرّف فيما يملك. وهذا صار سببـاً لانقسام المتكلّمين إلى عدلية وغير عدلية، وقد أوضحنا مقالة العدلية في محاضراتنا.[١]

وقد استدلّ شيخنا الطبرسي على نفي الظلم عـن ساحته سبحانه بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضاعِفْها وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً﴾.[٢]

---

١. الإلهيات:٢/ ٢٥٣.

٢. النساء:٤٠.

فقال: وإنّما لا يختار الله تعالى الظلم ولا يجوز عليه الظلم، لأنّه عالم بقبحه، مستغن عنه وعالم بغنائه عنه؛ وإنّما يختار القبيح من يختاره لجهله بقبحه، أو لحاجته إليه لدفع ضرر أو لجرّ نفع، أو لجهله باستغنائه عنه، و الله سبحانه منزّة عن جميع ذلك وعن سائر صفات النقص والعجز، ولم يذكر سبحانه الذرة ليقصر الحكم عليها، بل إنّما خصّها بالذكر لأنّها أقلّ شيء ممّا يدخل في وهم البشر.[1]

١. مجمع البيان: ٣/ ٧٦.

٨

القرآن محدث

لقد أحدثت فكرة حدوث القرآن وقِدمَه في عصر المأمون العباسي جدالاً واسعاً، وانقسم المحدّثون والعلماء إلى طائفتين. فأهل الحديث وتبعهم الأشاعرة إلى أنّ القرآن قديم، والعدلية إلى أنّ القرآن حادث. ومن عجيب الأمر انّهم لم ينقحوا موضع النزاع وما هو المراد من القرآن الذي حكم عليه بالقدم أو الحدوث؟ فإن أرادوا به علم الله سبحانه، فلا شكّ انّه قديم لا يختلف فيه اثنان؛ وإن أرادوا به ألفاظه وقسطاً وافراً من معانيه، فلا شكّ انّها محدثة لكون الألفاظ والوضع حادث.

إنّ أهل الحديث والأشاعرة جعلوا لله نداً من خلال تبنّيهم قدم القرآن، فلو قالت النصارى بالأقانيم والقدماء الثلاثة فانّ أهل الحديث حسب ظواهر كلماتهم ذهبوا إلى تعدّد القدماء حسب تعدّد نسخ القرآن.

ولمّا وقف الإمام الأشعري على مضاعفات القول بقدم القرآن عدل عن القول بحدوث القرآن الملفوظ، وقال بأنّ القديم هو الكلام النفسي،

وهذا الكلام على إجماله أثار ضجة كبيرة في الأوساط العلمية وزاد الطين بلّة وأكثر الجدل واللغط حول حقيقة الكلام النفسي.

نعم عدّ من الألغاز كسب الأشعري وحال البهشمي، وطفرة النّظام حتّى قال قائلهم:

ممّا يقال و لا حقيقة عند	معقولة تدنوا إلى الأفهام
الكسب عند الأشعري،والحال	عند البهشمي، وطفرة النظام

وكان على القائل أن يضيف إلى الثلاثة الكلام النفسي الذي أبداه الإمام الأشعري حفظاً لعقائد أهل السنّة وفراراً عن مضاعفات القول بقدم القرآن الملفوظ!!

وعلى كلّ تقدير يستدلّ شيخنا الطبرسي بالآية التالية على أنّ القرآن محدث، فقال عند تفسير قوله: ﴿مٰا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِها نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها أَلَمْ تَعْلَمْ إِنَّ اللهَ عَلىٰ كُلِّ شَيءٍ قَدير﴾.[1]

فقال: وفي هذه الآية دلالة على أنّ القرآن محدث وانّه غير الله تعالى، لأنّ القديم لا يصحّ نسخه، ولأنّه أثبت له مثلاً والله سبحانه قادر عليه، وما كان داخلاً تحت القدرة فهو فعل، والفعل لا يكون إلّا محدثاً.[2]

---

١. البقرة:١٠٦.

٢. مجمع البيان:١/ ٣٤٩.

٩

الأنبياء أفضل من الملائكة

إنّ الرأي السائد بين المتكلّمين هو أنّ الأنبياء أفضل من الملائكة، غير أنّ هناك من ذهب إلى أفضلية الملائكة على الأنبياء، مستدلاً بقوله سبحانه: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ المَسيحُ أَنْ يَكُونَ عَبداً للهِ ولاَ المَلائِكَةُ المُقَرّبُون﴾.[١]

قال شيخنا الطبرسي: واستدلّ بهذه الآية من قال بأنّ الملائكة أفضل من الأنبياء، قالوا: إنّ تأخير ذكر الملائكة في مثل هذا الخطاب يقتضي تفضيلهم، لأنّ العادة لم تجر بأن يقال لن يستنكف الأمير بأن يفعل كذا ولا الحارس، بل يقدّم الأدون ويؤخّر الأعظم، فيقال: لن يستنكف الوزير أن يفعل كذا ولا السلطان، وهذا يقتضي فضل الملائكة على الأنبياء.

وأجاب أصحابنا عن ذلك بأن قالوا إنّما أخّر ذكر الملائكة عن

---

١. النساء:١٧٢.

ذكر المسيح لأنّ جميع الملائكة أفضل وأكثر ثواباً من المسيح، وهذا لا يقتضي أن يكون كلّ واحد منهم أفضل من المسيح، وإنّما الخلاف في ذلك، وأيضاً فانّا وإن ذهبنا إلى أنّ الأنبياء أفضل من الملائكة فانّا نقول: مع قولنا بالتفاوت أنّه لا تفاوت في الفضل بين الأنبياء والملائكة، ومع التقارب والتداني يحسن أن يقدّم ذكر الأفضل، ألا ترى انّه يحسن أن يقال ما يستنكف الأمير فلان من كذا، ولا الأمير فلان، إذا كانا متساويين في المنزلة أو متقاربين، وإنّما لا يحسن أن يقال ما يستنكف الأمير فلان من كذا ولا الحارس، لأجل التفاوت.[١]

واستدلّ ﷺ أيضاً على أفضلية الأنبياء بقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قُلْنا لِلمَلائِكةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجُدوا﴾.[٢]

فقال: وفي هذه الآية دلالة على أنّ الأنبياء أفضل من الملائكة من حيث إنّه أمرهم بالسجود لآدم، وذلك يقتضي تعظيمه وتفضيله عليهم، وإذا كان المفضول لا يجوز تقديمه على الفاضل، علمنا أنّه أفضل من الملائكة.[٣]

---

١. مجمع البيان:٣/ ٢٢٥.

٢. البقرة:٣٤.

٣. مجمع البيان:١/ ١٨٩.

١٠

الأنبياء لا يجوز لهم التقية

إنّ التقيّة من المفاهيم السامية في الإسلام، ولها حدود وضوابط، وربّما تكون التقية حراماً إذا صارت ذريعة لمفاسد كبيرة، وقد أوضحنا حالها وأقسامها وفوائدها في كتابنا «الانصاف في مسائل دام فيها الخلاف».[١]

وعلى ضوء ما ذكرنا يحرم على الأنبياء التقية في تبليغ الرسالة، لأنّها لا تواكب أهدافهم ومقاصدهم، وقد استدلّ الشيخ الطبرسي على عدم جواز التقية عليهم بقوله سبحانه: ﴿**الّذينَ يُبَلِّغُونَ رِسالاتِ الله وَيَخشَونَهُ وَلا يَخْشونَ أَحداً إلاّ الله**﴾.[٢]

قال: وفي هذا دلالة على أنّ الأنبياء لا يجوز عليهم التقية في تبليغ الرسالة، ومتى قيل: فكيف ما قال لنبيّنا ﷺ: ﴿**وتخشى الناس واللهُ أحقّ**

---

١. الجزء الثاني، ص٢٣١ـ٣٤٦.

٢. الأحزاب:٣٩.

أَن تخشاه﴾[١]، فالقول إنّه لم يكن ذلك فيما يتعلق بالتبليغ وإنّما خشي المقالة القبيحة فيه، والعاقل كما يتحرز عن المضار يتحرز من إساءة الظنون به والقول السيء فيه، ولا يتعلّق شيء من ذلك بالتكليف.[٢]

١. الأحزاب:٣٧.

٢. مجمع البيان:٨/ ٥٦٦.

١١

إعجاز القرآن من منظار عدم الاختلاف

إنّ القرآن المجيد من المعجزات الخالدة للنبي ﷺ، وقد ذكر المحقّقون وجوهاً لإعجاز القرآن أوضحنا حالها في الإلهيات على هدى الكتاب والسنّة. ومن وجوه إعجازه عدم وجود التناقض فيه مع أنّه نزل على النبي ﷺ نجوماً في فترات مختلفة وظروف حرجة تختل فيه أحوال الإنسان، ومع ذلك فالآيات القرآنية كسبيكة واحدة تقع فوق ما يحوم الإنسان حوله من الكلام، وقد استدلّ الطبرسي على إعجاز القرآن من منظار عدم الاختلاف بقوله سبحانه: ﴿ **أَفَلا يَتَدبَّرُونَ الْقُرآنَ وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيرِ اللهِ لَوَجَدُوا فيهِ اختلافاً كَثيراً**﴾.[1] حيث قال:

أيّ كلام غير الله أي لو كان من عند النبي أو كان يعلمه بشر كما زعموا ﴿ **لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً**﴾ قيل: فيه أقوال:

أحدها: انّ معناه لوجدوا فيه اختلاف تناقض من جهة حق

---

١. النساء: ٨٢.

وباطل. عن قتادة وابن عباس .

والثاني: اختلافاً في الأخبار عمّا يسرّون عن الزجاج.

والثالث: من جهة بليغ ومرذول عن أبي علي.

والرابع: تناقضاً كثيراً عن ابن عباس، وذلك كلام البشر إذا طال وتضمن من المعاني ما تضمنه القرآن لم يخل من التناقض في المعاني والاختلاف في اللفظ، وكلّ هذه المعاني منفي عن كلام الله كما قال: ﴿**لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه**﴾.[1]

---

١. مجمع البيان:٣/ ١٢٥.

١٢

إخبار القرآن بالغيب

من وجوه إعجازه

ذكر المحقّقون انّ من وجوه إعجاز القرآن هو إخباره بالغيب في مواطن كثيرة، وقد جمعنا شيئاً من أخباره الغيبية في محاضراتنا.[١]

وقد ذكر شيخنا الطبرسي في تفسير سورة الكوثر خبراً غيبياً و قال: إنّ في هذه السورة ـ ﴿إنَّ شانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرِ﴾ـ دلالات على صدق نبيّنا محمّد ﷺ وصحّة نبوته:

أحدها: انّه أخبر عمّا في نفوس أعدائه وما جرى على ألسنتهم ولم يكن بلغه ذلك، فكان على ما أخبر.

وثانيها: انّه قال : ﴿إنّا أَعْطَيْناكَ الكَوثر﴾ فانظر كيف انتشر دينه وعلا أمره وكثرت ذرّيته، حتّى صار نسبه أكثر من كلّ نسب، ولم يكن شيء من ذلك في تلك الحال.

---

١. لاحظ الإلهيات:٣/ ٤١٣.

وثالثها: انّ جميع فصحاء العرب والعجم قد عجزوا عن الإتيان بمثل هذه السورة على وجازة ألفاظها مع تحدّيه إيّاهم بذلك وحرصهم على بطلان أمره منذ بعث النبي ﷺ إلى يومنا هذا، وهذا غاية الإعجاز.

ورابعها: انّه سبحانه وعده بالنصر على أعدائه وأخبره بسقوط أمرهم وانقطاع دينهم أو عقبهم، فكان المخبر على ما أخبر به.[١]

١. مجمع البيان: ١٠/ ٨٣٨.

١٣

النسخ في الشريعة

اتّفق المسلمون إلاّ من شذّ على جواز النسخ في الشريعة، وليس النسخ دليلاً على جهل الشارع، بل هو بعلمه بعاقبة الأُمور يشرع حكماً ظاهراً في الاستمرار، ومؤقتاً في الواقع، فإذا جاء أمد الحكم ينسخه بحكم آخر. وقد استدلّ شيخنا الطبرسي على جواز النسخ بقوله سبحانه: ﴿وَما جَعَلْنا الْقِبْلَةَ الّتي كُنْتَ عَلَيْها إلاّ لِنَعلَم مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلى عَقِبَيْه﴾.[1]

قال: وفي هذه الآية دلالة على جواز النسخ في الشريعة، بل على وقوعه، لأنّه قال: ﴿وما جَعَلنا الْقِبلة الّتي كنت عليها﴾ فأخبر أنّه تعالى هو الجاعل لتلك القبلة، وأنّه هو الذي نقله عنها، وذلك هو النسخ.[2]

---

١. البقرة:١٤٣.

٢. مجمع البيان:١/ ٤١٨.

١٤

نسخ السنّة بالقرآن

اتّفق القائلون بالنسخ على أنّ القرآن ينسخ السنّة، وقد استشهد الشيخ الطبرسي على هذه الضابطة بالآية التالية: ﴿واللاّتي يأتينَ الفاحِشة مِنْ نِسائكُمْ فَاسْتَشهدوُا عَلَيْهِنَّ أربَعةً مِنكُمْ فَإنْ شَهِدُوا فَأمسِكُوهُنَّ فِي البُيُوت حَتّى يَتَوفّاهُنَّ المَوت﴾.[١]

وكان في مبدأ الإسلام إذا فجرت المرأة وقام عليها أربعة شهود حُبسَت في البيت أبداً حتّى تموت، ثمّ نسخ ذلك بالرجم في المحصنين والجلد في البكرين ومنسوخة بسورة النور.[٢]

١. النساء:١٥.

٢. مجمع البيان:٣/ ٣٤.

١٥

نسخ القرآن بالسنّة

اختلف العلماء في نسخ القرآن بالسنّـة ، فلو كان المراد من السنّة هو خبر الواحد فلا شكّ انّه دليل ظنّي لا يُنسخ به الدليل القطعي.

إنّ للقرآن الكـريم مكانة سـامية في الشريعة الإسلاميـة لا يمكن نسخه بالنقول المظنونة حتّى بالخبر المستفيض، ولو جاز النسخ فإنّما يجوز بـالسنّة القطعيـة، أي الخبر المتواتـر أو الخبر المحفوف بـالقرائن المفيـدة للعلم.

ثمّ إنّ شيخنا الطبرسي ذكر دليل من قال بأنّه لا يجوز نسخ القرآن بالسنّة، وهو قوله سبحانه: **﴿قالَ الَّذِينَ لاٰ يَرْجُونَ لقاءَنا ائْتِ بِقُرآنٍ غَيرِ هذا أَو بَدّلْهُ قُل ما يَكُونُ لِي أَن أُبَدِّلـهُ مِنْ تِلْقاءِ نَفسِي إن أتّبعُ إلاّ ما يُوحَىٰ إليّ﴾**.[1]

قال: استدلّ بالآية على أنّ نسخ القرآن بالسنّة لا يجوز..

---

١. يونس:١٥

ولكنّه ﷺ عدّه أمراً بعيداً وأجاب عـن الاستدلال بقوله: لأنّه إذا نسخ القرآن بالسنّة وما يقوله النبي ﷺ فإنّه يقوله بالوحي من الله، فلم ينسخ القرآن ولم يبدِّله من قبل نفسه، بل يكون تبديله من قبل الله تعالى، ولكن لا يكون قرآناً، ويؤيّد ذلك قوله :﴿وَما يَنْطِقُ عَنِ الهَوىٰ* إِنْ هُوَ إلاّ وَحْيٌ يُوحىٰ﴾.[1]

١. مجمع البيان:٥/ ١٤٧.

١٧

الاتّهام بإنكار علم الغيب

وقد اتّهم شيخ المفسّرين وإمامهم بأنّه من المنكرين لعلم الأئمّة عليهم السلام بالغيب تمسّكاً بما قاله في تفسير قوله سبحانه: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ ماذا أُجِبْتُمْ قالُوا لا عِلْمَ لَنا إِنَّكَ أَنْتَ عَلاّمُ الغُيُوبِ﴾.[1]

قال ما هذا لفظه:

وذكر الحاكم أبو سعيد في تفسيره: انّها تدلّ على بطلان قول الإمامية: انّ الأئمّة يعلمون الغيب وأقول: إنّ هذا القول ظلم منه لهؤلاء القوم، فانّا لا نعلم أحداً منهم بل أحداً من أهل الإسلام يصف أحداً من الناس بعلم الغيب ومن وصف مخلوقاً بذلك فقد فارق الدين، والشيعة الإمامية برآء من هذا القول، ومن نسبهم إلى ذلك فالله في ما بينه و بينهم.[2]

أقول: ما ذكره أمين الإسلام لا يهدف إلاّ إلى نفي علم الغيب

---

١. المائدة:١٠٩.

٢. مجمع البيان:٣/ ٤٠٣.

١٦

رأيه في التصوير

رسماً كان أو مجسّماً

ذهب الشيخ الطبرسي إلى كراهة التصوير مطلقاً، وقال في تفسير قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ اتَّخذتُمُ العِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظالِمُون﴾[١] ما هذا لفظه:

قوله: ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ العِجْل﴾ أي اتّخذتموه إلهاً، لأنّهم بنفس فعلهم لصورة العجل لا يكونون ظالمين، لأنّ فعل ذلك ليس بمحظور وإنّما هو مكروه، وأمّا الخبر الذي روي أنّه ﷺ لَعَنَ المصوّرين، فالمراد به من شبّه الله بخلقه، أو اعتقد فيه انّه صورة .[٢]

---

١. البقرة:٥١.

٢. مجمع البيان:١/ ٢٣٣.

عنهمﷺ على غرار علمه سبحانه به، وأمّا علم الغيب المكتسب بإذن الله سبحانه فلا ينفيه بشهادة قوله: «ومن وصف مخلوقاً بذلك فقد فارق الدين» إذ أيُّ صلة بين مفارقة الدين والقول بأنّ الله سبحانه علم شيئاً من الغيوب لبعض عباده الصالحين.

والذي يدلّنا إلى مرامه ومقصده ما ذكره في تفسير قوله سبحانه: ﴿ وَلِلهِ غَيْبُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمّا تَعْمَلُونَ﴾ .[١]

فقال في ذيل هذه الآية ما هذا لفظه: وجدت بعض المشايخ ممّن يتّسم بالعدوان والتشنيع قد ظلم الشيعة الإمامية في هذا الموضع من تفسيره فقال: «هذا يدلّ على أنّ الله سبحانه يختص بعلم الغيب خلافاً لما تقول الرافضة: إنّ الأئمّة يعلمون الغيب» ولا شك أنّه عنى بذلك من يقول بإمامة الاثني عشر ويدين بأنّهم أفضل الأنام بعد النبي ﷺ، فإنّ هذا دأبه وديدنه فيهم، يشنع في مواضع كثيرة من كتابه عليهم، وينسب الفضائح والقبائح إليهم، ولا نعلم أحداً منهم استجاز الوصف بعلم الغيب لأحد من الخلق، فإنّما يستحق الوصف بذلك من يعلم جميع المعلومات لا بعلم مستفاد، وهذه صفة القديم سبحانه، العالم لذاته لا يشركه فيها أحد من المخلوقين ومن اعتقد أنّ غير الله سبحانه يشركه في هذه الصفة فهو خارج عن ملّة الإسلام.

---

١. هود: ١٢٣.

فأمّا ما نقل عن أمير المؤمنين عليه السلام ورواه عنه الخاص والعام من الأخبار بالغائبات في خطب الملاحم وغيرها، مثل قوله وهو يومي به إلى صاحب الزنج: «كأنّي يا أحنف وقد سار بالجيش الذي ليس له غبار ولا لجب ولا قعقعة لجم، ولا صهيل خيل يثيرون الأرض بأقدامهم كأنّها أقدام النعام».

وقوله يشير إلى مروان: «أمّا أنّ له إمرة كلعقة الكلب أنفه، وهو أبو الأكبش الأربعة وستلقي الأُمّة منه ومن ولده موتاً أحمر».

وما نقل من هذا الفن عن أئمّة الهدى عليهم السلام من أولاده، مثل ما قاله أبو عبد الله عليه السلام لعبد الله بن الحسن وقد اجتمع هو وجماعة من العلوية والعباسية ليبايعوا ابنه محمداً: «والله ما هي إليك ولا إلى ابنيك ولكنّها لهم ـ وأشار إلى العباسيّة ـ وأنّ ابنيك لمقتولان»، ثمّ نهض وتوكأ على يد عبد العزيز بن عمران الزهري فقال له: «أرأيت صاحب الرداء الأصفر؟» ـ يعني أبا جعفر المنصور ـ قال: نعم، فقال: «إنّا والله نجده يقتله». فكان كما قال.

ومثل قول الرضا عليه السلام: بورك قبر بطوس، وقبران ببغداد، فقيل له: قد عرفنا واحداً فما الآخر؟ قال: ستعرفونه، ثمّ قال: قبري وقبر هارون هكذا ـ وضم أصبعيه ـ.[1]

---

١. نظير قوله لموسى بن مهران في مسجد المدينة عندما كان هارون يخطب: «أترونني وإيّاه ندفن في بيت واحد». عيون أخبار الرضا: ٢/ ٢٢٦.

وقوله في القصة المشهورة لأبي حبيب النباحي وقد ناوله قبضة من التمر: «لو زادك رسول الله ﷺ لزدناك».

وقوله من حديث علي بن أحمد الوشاء حين قدم مرو من الكوفة: «معك حلّة في السفط الفلاني دفعتها إليك ابنتك وقالت اشتر لي بثمنها فيروزجاً». والحديث مشهور.

إلى غير ذلك ممّا روي عنهم عليهم السلام. فإنّ جميع ذلك متلقّى عن النبي ﷺ ممّا أطلعه الله عليه، فلا معنى لنسبة من روي عنهم هذه الأخبار المشهورة إلى أنّه يعتقد كونهم عالمين بالغيب، وهل هذا إلاّ سب قبيح وتضليل لهم، بل تكفير لا يرتضيه من هو بالمذاهب خبير، الله يحكم بينه وبينهم وإليه المصير. [1]

---

١. مجمع البيان: ٥/ ٣١٣ـ٣١٤.

١٨

ترتيب السور

على رؤية الإمام الطبرسي

نزل القرآن المجيد نجوماً على قلب سيّد المرسلين في فترة تربو على ٢٣ سنة، وقد قضى النبيّ ﷺ من تلك الفترة ١٣ عاماً في مكة المكرمة و١٠ في المدينة المنورة، فالسور النازلة في الفترة الأُولى مكية وفي الثانية مدنية، غير أنّ المهم تمييز المكي عن المدني.

وقد أخرج الإمام الطبرسي بسنده عن ابن عباس حديثاً جامعاً يتميّز بها المكي عن المدني ويُزاح بها بعض الأوهام والشبهات التي دارت حول الآيات النازلة في حقّ أئمّة أهل البيت عليهم السلام ، وإليك نص الحديث الذي رواه الإمام الطبرسي و لا يستغني عنه أي مفسر، قال:

حدثنا السيّد أبو الحمد محمد بن نزار الحسيني القائيني. قال أخبرنا الحاكم أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله الحسكاني قال: حدثنا أبو نصر المفسر قال: حدّثني عمي أبو حامد إملاء قال: حدّثني الفزاري

أبو يوسف يعقوب بن محمد المقري قال: حدّثنا محمد بن يزيد السلمي قال: حدّثنا زيد بن موسى قال: حدّثنا عمرو بن هارون عن عثمان بن عطاء عن أبيه عن ابن عباس.

قال: أوّل ما أنزل بمكة ﴿اقرأ باسم ربّك﴾، ثمّ ﴿ن والقلم﴾، ثمّ المزمّل ،ثمّ المدثر، ثمّ ﴿تبت﴾، ثمّ﴿إذا الشّمس كوّرت﴾، ثمّ ﴿سبّح اسم ربك الأعلى﴾، ثمّ ﴿والليل إذا يغشى﴾، ثمّ ﴿والفجر﴾، ثمّ ﴿والضحى﴾، ثمّ ﴿ألم نشرح﴾، ثمّ ﴿والعصر﴾، ثمّ ﴿والعاديات﴾، ثمّ ﴿إنّا أعطَيناك الكوثر﴾، ثمّ ﴿الهاكم التكاثر﴾، ثمّ ﴿أرأيت﴾ ثمّ الكافرون، ثمّ ﴿أَلم تر كيف﴾، ثمّ ﴿قل أعوذ بربّ الفلق﴾، ثمّ ﴿قُل أعوذ بربّ الناس﴾، ثمّ ﴿قل هُوا لله أحد﴾، ثمّ﴿والنجم﴾، ثمّ ﴿عبس﴾، ثمّ ﴿إنّا أنزلناه﴾، ثمّ ﴿والشمس﴾، ثمّ البروج، ثم والتين، ثمّ لإيلاف، ثم القارعة، ثمّ القيامة، ثمّ الهمزة، ثمّ والمرسلات، ثم ق، ثم ﴿لا أُقسم بهذا البلد﴾، ثمّ الطارق، ثمّ ﴿اقتربت الساعة﴾، ثم «ص»، ثم «الأعراف»، ثمّ ﴿قل أُوحي﴾، ثمّ يس، ثمّ الفرقان، ثمّ الملائكة، ثمّ كهيعص، ثم طه، ثمّ الواقعة، ثم الشعراء، ثمّ النمل، ثمّ القصص، ثمّ بني إسرائيل، ثمّ يونس، ثمّ هود، ثم يوسف، ثم الحجر، ثمّ الأنعام، ثمّ الصافات، ثمّ لقمان، ثم القمر، ثم سبأ، ثم الزمر، ثمّ حم المؤمن، ثمّ حم السجدة، ثمّ حمعسق، ثمّ الزخرف، ثمّ الدخان، ثمّ الجاثية، ثمّ الأحقاف، ثمّ

الذاريات، ثم الغاشية، ثمّ الكهف، ثم النحل، ثمّ نوح، ثمّ إبراهيم، ثم الأنبياء، ثمّ المؤمنون، ثـم ألم تنزيل، ثمّ الطور، ثم الملـك، ثم الحاقة، ثم ذو المعارج، ثم عمّ يتساءلون، ثم النـازعات، ثم انفطرت، ثم انشقت، ثم الـروح، ثم العنكبوت، ثم المطففين، فهـذه أنزلت بمكـة وهي خمس وثمانون سورة.

ثـمّ أنزلـت بـالمدينـة: البقرة، ثـم الأنفـال، ثـم آل عمران، ثـم الأحزاب، ثم الممتحنة، ثم النساء، ثمّ إذا زلـزلت، ثم الحديد، ثم سورة محمد، ثم الرعد، ثم سورة الرحمن، ثم هل أتى، ثمّ الطلاق، ثم لم يكن، ثم الحشر، ثـم إذا جاء نصر الله، ثـم النور ثـم الحجّ، ثم المنـافقون، ثـم المجادلة، ثم الحجرات، ثم التحريم، ثـم الجمعة، ثم التغابن، ثـم سورة الصف، ثـم سورة الفتح، ثم سـورة المائدة، ثمّ سورة التوبـة فهذه ثمان وعشرون سورة.

وقد رواه الأُستاذ أحمد الـزاهد بإسناده عن عثمان بـن عطاء، عن أبيه، عـن ابن عبـاس في كتاب الإيضـاح و زاد فيه: وكـانت إذا نـزلت فاتحة سورة بمكة كتبت بمكة ثمّ يزيد الله فيها ما يشاء بالمدينة.

وبإسناده عن عكرمـة والحسن بن أبي الحسن البصري: إنّ أوّل ما أنزل الله من القرآن بمكة على الترتيب: اقـرأ باسم ربّك، و ن، والمزمل ـ إلى قوله:ـ وما نـزل بالمدينة ويل للمطففين والبقـرة والأنفال وآل عمران والأحـزاب و المائدة والممتحنـة والنسـاء وإذا زلزلـت والحديـد وسـورة

محمّد ﷺ والرعد والرحمن وهل أتى على الإنسان إلى آخره.

و باسناده عن سعيد بن المسيب، عن علي بن أبي طالب عليه السلام انّه قال: «سألت النبي عن ثواب القرآن؟ فأخبرني بثواب سورة سورة على نحو ما نزلت من السماء، فأوّل ما نزل عليه بمكة فاتحة الكتاب ثمّ اقرأ باسم ربّك ثمّ ن ـ إلى أن قال: ـ وأوّل ما نزل بالمدينة سورة البقرة ثمّ الأنفال ثمّ آل عمران ثمّ الأحزاب ثمّ الممتحنة ثمّ النساء ثمّ إذا زلزلت ثمّ الحديد ثم سورة محمد ثم الرعد ثمّ سورة الرحمن ثم هل أتى ـ إلى قوله: ـ فهذا ما أنزل بالمدينة، ثمّ قال النبي ﷺ : جميع سور القرآن مائة وأربع عشرة سورة، وجميع آيات القرآن ستة آلاف آية ومائتا آية وست وثلاثون آية، وجميع حروف القرآن ثلاثمائة ألف حرف واحد وعشرون ألف حرف ومائتان وخمسون حرفاً، لا يرغب في تعلم القرآن إلاّ السعداء، ولا يتعهد قراءته إلاّ أولياء الرحمن.[1]

ثمّ إنّه رحمه الله استمد بهذا الحديث وغيره على ردّ من زعم انّ سورة الإنسان (هل أتى) مكية فلا يصحّ ما اشتهر من نزول آيات من هذه السورة في حقّ علي وفاطمة والحسنين، أعني قوله سبحانه: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخافُونَ يَوْماً كانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً﴾[2] الخ.

حيث أنكر بعض المعاندين نزول هذه الآيات في حقّهم عليهم السلام

---

١. مجمع البيان: ١٠/ ٦١٢ ـ ٦١٤.

٢. الدهر: ٧.

بحجة انّ السورة مكية لا مدنية والحسنان ولدا في المدينة لا في مكة.

ويظهر من شيخ المفسرين انّ هذه الشبهة كانت ذائعة في عصره، فبهذا الحديث حاول أن يردها بأنّ السورة مدنية لا مكية.

وقال في هذا الصدد بعد نقل الحديث: إنّ بعض أهل العصبية قد طعن في هذه القصة بأن قال: هذه السورة مكية، فكيف يتعلّق بها ما كان بالمدينة؟! واستدلّ بذلك على أنّها مخترعة جرأة على الله سبحانه وعداوة لأهل بيت رسوله، فأحببتُ إيضاح الحق في ذلك، وإيراد البرهان في معناه وكشف القناع عن عناد هذا المعاند في دعواه على أنّه كما نرى يحتوي على السر المخزون والدر المكنون من هذا العلم الذي يستضاء بنوره ويتلألأ بزهوره، وهو معرفة ترتيب السور في التنزيل وحصر عددها على الجملة والتفصيل، اللّهم أمددنا بتأييدك وأيّدنا بتوفيقك فأنت الرجاء والأمل وعلى فضلك المعول والمتكل.[١]

ولم تزل هذه الشبهة تدور بين المعاندين والمشككين حتّى أنّ ابن تيمية كرر هذه الشبهة وأدان بها العلامة الحلي، فقال: ذكر هذا الرجل (العلامة الحلي) أشياءَ في الكذب تدلّ على جهل ناقلها مثل قوله: نزل في حقهم ــ في حق أهل البيت ـ هل أتى، فإنّ هل أتى مكية باتّفاق العلماء، وعلي إنّما تزوج فاطمة بالمدينة بعد الهجرة، وولد الحسن والحسين بعد نزول هل أتى، فقوله: إنّها نزلت فيهم من الكذب الذي لايخفى على

---

١. مجمع البيان:١٠/ ٦١٤.

من له علم بنزول القرآن وأحوال هذه السادة الأخيار.[١]

وقال ابن حـزم: لسنا من كذب الرافضـة في تأويلهم ﴿ويطعمون الطعام على حبّه مسكيناً ويتيماً وأسيراً﴾ وانّ المراد بذلك علي(رض)، بل هذا لا يصحّ، بل الآية على عمومها وظاهرها لكلّ ما فعل ذلك.[٢]

ومع الأسـف انّ هؤلاء الذين يـرفضون نزول هذه الآيـات في حقّ أئمّة أهل البيت عليهم السلام يصدرون عن الهدى و النص الخفـي، و إلاّ فقد نقل نـزوله كبـار المحـدّثين وفطـاحل المفسريـن حتّـى أنّ الحافـظ أبا محمـد العاصمي أفـرد كتاباً في هذا الموضوع أسماه «زيـن الفتى في تفسير سورة هل أتى» وهو مخطـوط لم يطبع، مضافاً إلى أنّه نقله غيره بـوفرة وقد أخرج العلاّمـة الأمين في غديره مصـادر نزول هـذه الآيات في حقّ أئمّـة أهل البيت ربما تناهز الـ ٣٤ مصدراً.[٣]

١. منهاج الكرامة: ٢/ ١١٧.

٢. الفصل في الملل والنحل: ٤/ ١٤٦.

٣. لاحظ الغدير: ٣/ ١٥٥ ـ ١٦٠، ط مركز الغدير للدراسات الإسلامية.

١٩

الاستدلال على ما تنفرد به الإمامية

إنّ الإمام الطبرسي يـذكر في مقـدمة الكتـاب خصائص تفسيره ويقول: ...والكلام على مطـاعن المبطلين فيه وذكر ما يتفرّد بـه أصحابنا رضي الله عنهم مـن الاستدلالات في مـواضع كثيرة،منـه على صحّة مـا يعتقدونـه من الأُصول والفـروع، والمعقول والمسموع على وجـه الاعتدال والاختصار، فوق الإيجاز ودون الإكثار.[١]

والسابر في مجمع البيان يجد انّ الشيخ الطبرسي أفاض الكلام فيما تنفـرد بـه الإمـاميـة على النحو الـذي وصـف أي على وجـه الاعتـدال والاختصـــار فـوق الإيجاز ودون الإكثـــار، ونحـن نـــذكـر نماذج مـــن استدلالاته.

١. الاستدلال على المسح بالقرآن الكريم

من المواضع التي تنفرد بها الشيعة الإمـامية هو مسح الرجلين في

---

١. مجمع البيان:١/ ٧٦.

الوضوء دون غسلهما، و قد كان المسْحُ هـو الأمر الرائج في عصر الرسول وبعده بفترة، وكان قسم كبيرمن الصحابة يمسحون الأرجل إلى أن غلبت المصلحة المزعـومة على النـصّ فصار الغسل هـو الرائج بين السنّـة، وقد ذكرنـا تفسير ذلك في كتـابنا «**الإنصـاف في مســائل دام فيهـا الخلاف**» والشيخ الطبرسي عنـدما وصل إلى تفسير قـوله سبحـانه: ﴿**يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إذا قُمْتُمْ إلـى الصَّلاة فَاغسِلُوا وُجُـوهكُمْ**﴾ بيّن كيفيّـة دلالة الآيـة المباركة على المسح ، وقال في ذلك الصدد:

اختلف في ذلك فقـال جمهور الفقهاء إنّ فرضهما الغسـل، وقالت الإمامية فرضهما المسح دون غيره، وبه قال عكرمة وقد روي القول با لمسح عـن جماعة مـن الصحـابة والتـابعين كـابن عبـاس وأنـس وأبي العاليـة والشعبـي، وقال الحسـن البصري بـالتخيير بين المسـح والغسل، وإليـه ذهب الطبري والجبـائي إلاّ أنّهما قالا يجب مسح جميـع القدمين ولا يجوز الاقتصار على مسح ظاهر القدمُ .

وقال نـاصر الحق من جملة أئمة الـزيدية: يجب الجمـع بين المسح والغسل.

وروي عن ابن عباس انّه وصف وضوء رسول الله ﷺ فسمح على رجليـه، وروي عنه أنّـه قـال: إنّ في كتاب الله المسـح ويـأبى النـاس إلاّ الغسل وقال: الوضوء غسلتان ومسحتان.

وقال قتادة: فرض الله غسلتين ومسحتين.

وروى ابن علية عن حميد عن موسى بن أنس أنّه قال لأنس ونحن عنده: إنّ الحجاج خطبنا بالأهواز فذكر الطهر، فقال: اغسلوا وجوهكم وأيديكم وامسحو برؤوسكم وانّه ليس شيء من بني آدم أقرب من خبثه من قدميه، فاغسلوا بطونها وظهورهما وعراقيبها[1]، فقال أنس: صدق الله وكذب الحجاج، قال الله تعالى: ﴿وامسحوا برءُوسكم وأرجلكم إلى الكعبين﴾ قال فكان أنس إذا مسح قدميه بلّهما.

وقال الشعبي: نزل جبرئيل عليه السلام بالمسح، ثمّ قال: انّ في التيمم يُمسح ما كان غَسْلاً، ويلقى ما كان مَسْحاً.

وقال يونس: حدّثني من صحب عكرمة إلى واسط قال: فما رأيته غسل رجليه إنّما كان يمسح عليها.

وأمّا ما روي عن سادة أهل البيت عليهم السلام في ذلك فأكثر من أن يحصى.[2]

تفسير القراءتين على القولين

فمن أوجب الغسل حمل قراءة النصب على أنّه معطوف على وجوهكم في قوله سبحانه: ﴿ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيدِيَكُمْ﴾ ، كما أنّه

---

١. وفي المطبوع: «عراقيبيها» والصحيح ما أثبتناه، وهي جمع «عرقوب» وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله: «ويل للعراقيب من النار».

٢. مجمع البيان: ٣/ ٢٥٥.

حمل قراءة الجر على الخفض بالجوار وربما فسّروا وجه الجر بها عن أبي زيد انّه قال: المسح خفيف الغسل، فقد قالوا تمسحت للصلاة، وقوّىٰ ذلك بأنّ التحديد والتوقيت إنّما جاء في المغسول ولم يجئ في الممسوح، فلمّا وقع التحديد في المسح علم أنّه في حكم الغسل لموافقته الغسل في التحديد وهذا قول أبي علي الفارسي.

ولا يخفى انّ الجميع لا يخلو من تعسف.

أمّا الأوّل فيلزم الفصل بين المعطوف ﴿وأرجلكم﴾ والمعطوف عليه ﴿وجوهكم﴾ بجملة معترضة تامة، أعني: ﴿وامسحوا برءُوسكم﴾ و هو غير جائز.

وأمّا الثاني: فلأنّ الخفض بالجوار لايجوز في كتاب الله، لأنّه لغة شاذة، ومجرد وروده في مثل معروف«حُجر ضب خرب» لا يكون دليلاً على تفسير أفصح الكلام به.

وأمّا الثالث: فلأنّ القول بأنّ التحديد جاء في المغسول ولم يجئ في الممسوح من غرائب الكلام.

فإنّ الممسوح كالمغسول، فالوجه مغسول غير محدد والأيدي مغسولة، محددة.

والرأس ممسوح غير محدد، والأرجل ممسوحة محددة بالكعبين.

نفترض صحّة ما ذكره فهل يصحح ما ذكره، التصرفَ في المسح، المقابل للغسل، بحمله على الغسل الخفيف، كلاّ ولا.

ثمّ إنّ الشيخ الطبرسي ذكر وجه القراءتين على القول بالمسح وقال:

وأمّا من قال بوجوب مسح الرجلين حمل الجر والنصب في ﴿وأرجلكم﴾ على ظاهره من غير تعسف.

أمّا الجرّ فللعطف على الرؤوس.

وأمّا النصب فللعطف على موضع الجار والمجرور في برؤوسكم.

وأمثال ذلك في كلام العرب أكثر من أن تحصى، ثمّ استشهد بقول القائل:

معاوية اننا بشر فاسجح فلسنا بالجبال ولا الحديدا

حيث عطف الحديد المنصوب على موضع الجبال بالجوار، لأنّه خبر ليس.

ثمّ إنّه ﷺ أفاض الكلام في ذلك فمن أراد فليرجع إلى المصدر [1]

٢. الاستدلال على حلية المتعة بالكتاب

اتّفق المسلمون على حلية المتعة في فترة من أعصار الرسالة ثمّ اختلفوا في نسخها في عصر الرسول أو بقائها على الحلية كما كانت، فالشيعة الإمامية ولفيف من الصحابة على الثاني والأكثرية الساحقة من

---

١. مجمع البيان: ٣/ ٢٥٥ـ٢٥٦ بتلخيص وتصرّف.

٢. النساء: ٢٤.

السنّة على الأوّل.

فاستدلّوا على حلية المتعة وشرعيتها ففي عصر الرسالة بقوله سبحانه: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورهنّ فَريضة﴾.(٢)

فالأكثر على أنّ المراد بقوله: ﴿فما استمتعتم﴾ هو عقد المتعة، يقول الشيخ الطبرسي في تفسير الآية: والمراد به نكاح المتعة وهو النكاح المنعقد بمهر معين إلى أجل معين عن ابن عباس والسدي وابن سعيد وجماعة من التابعين، وهو مذهب أصحابنا، وهو الواضح لماذا؟

أقول: إنّ هنا ادّعاءين:

١. المراد من قوله: ﴿وما استمتعتم﴾ هو عقد النكاح سواء أكان عقد دائم أو عقد منقطع، لا الانتفاع والالتذاذ.

٢. إذا ثبت انّ المقصود من قوله ﴿وما استمتعتم﴾ هو العقد، لا الاستمتاع العملي، فالمراد هو عقد المتعة، لا عقد الدائم.

أمّا الأوّل فلوجهين:

١. أنّ لفظ الاستمتاع والتمتع وإن كان يطلق على الانتفاع والالتذاذ، لكنّه صار بعرف الشرع مخصوصاً بهذا العقد، لا الاستمتاع العملي، لا سيما إذا أُضيف إلى النساء، فعلى هذا يكون معناه: متى عقدتم عليهن هذا العقد فآتوهن أُجورهن.

٢. انّه علّق وجوب إعطاء المهر بالاستمتاع، وهذا يقتضي أن

يكون المراد بـه، هو العقد لا الاستمتـاع العملي، لأنّ المهر يجب بـالعقد ولا يتوقّف على الجماع.

إلى هنا تبيّن انّ المراد به هو العقد، لا الاستمتاع العملي.

وأمّا الثاني : أي كون المراد عقد المتعة ، لا عقد النكاح الدائم ، فلأنّ إيجـاب دفع المهر بتمامـه بمجرّد العقد من خصـائص المتعة ، وأمّا عقد النكاح الدائم ، فالجميع يثبـت بالعقد ، ولكن لا يجب دفع الكلّ إلاّ لعد المـسّ ، فإيجاب دفع الكلّ بمجرّد العقـد من خصائص عقد المتعة .

بعض القرائن على أنّ المراد هو عقد المتعة

وقد روي عن جماعـة من الصحابة منهم أُبي بـن كعب وعبد الله بن عبـاس وعبد الله بـن مسعود انّهم قـرأوا:«فما استمتعتم بـه منهن إلى أجل مسمّـى فآتـوهن أُجـورهن» وفي ذلـك تصريح بـأنّ المراد به عقـد المتعة.

وقد أورد الثعلبي في تفسيره عن حبيب بن أبي ثابت قال: أعطاني ابن عباس مصحفـاً فقال: هذا على قراءة أُبيّ، فـرأيت في المصحف: فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمّى.

وبإسناده عن أبي نضرة قال: سألت ابن عباس عن المتعة، فقال: أما تقرأ سورة النساء؟ فقلت: بلى، فقال: فما تقرأ «فما استمتعتم به منهن

إلى أجل مسمّـى»، قلت: لا أقـرأها هكذا، قـال ابن عبـاس: والله هكذا أنزلها الله تعالى ثلاث مرات.

وبما انّ المسلمين اتّفقوا على صيانـة القرآن من التحريـف، فكلام ابن عباس محمول على تفسير الآية لا انّ قولـه«إلى أجل مسمّى» جزء من الآية.

ثمّ نقل عن علي عليه السلام انّه قال:لولا انّ عمر نهى عن المتعة ما زنا إلاّ شقي.

كما نقل عن عمران بن حصين قال: نـزلت آية المتعة في كتاب الله ولم تنزل آية بعدها تنسخها فأمـرنا بها رسول الله وتمتعنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومات ولم ينهنا عنها، فقال بعد رجل برأيه ما شاء.[1]

---

١. مجمع البيان:٣/ ٥٢، دار المعرفة، مع تلخيص وتصرّف.

٢٠

آزر لم يكن والد إبراهيم

اتّفقت الإمامية على أنّ آباء النبي كانوا موحدين[١]

وربّما يورد عليهم بأنّ آزر كان أبا إبراهيم وكان مشركاً ومات عليه، قال تعالى: ﴿وَما كانَ استِغْفارُ إبراهيمَ لأَبيه إلاّ عَنْ مَوْعِدةٍ وَعَدَها إِيّاهُ فَلَمّا تَبَيّنَ لَهُ أنّهُ عَدُوٌّ للهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنّ إبراهِيمَ لأوّاهٌ حَلِيم﴾.[٢]

فأجاب أصحابنا بأنّ آزر لم يكن والد إبراهيم، بل كان عمه أو خاله، والأب يستعمل ـ مجازاً ـ في غير الوالد.

وأمّا الوالد، فلا يستعمل إلاّ فيمن ولد الإنسان، والشاهد على أنّه لم يكن والده، انّه عليه السلام بشهادة الآية السابقة، تبرّأ منه، ولكنّه في الوقت نفسه دعا في آخريات عمره لوالده، قال سبحانه حاكياً عنه: ﴿ربّنا اغْفِر لِي وَلِوالدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَومَ يَقومُ الحِساب﴾.[٣]

وقد صدر عنه هذا الدعاء وهو كبير طاعن في السن كما يحكي

---

١. أوائل المقالات:٤٥.

٢. التوبة:١١٤.

٣. إبراهيم:٤١.

عنه سبحانه قبل هذه الآية ﴿الحمدُ للهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلى الكِبرِ إِسْماعِيلَ وَإِسحاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَميعُ الدُّعاء﴾ .[١]

يقول إمام المفسّرين في هذا الصدد:

واستدلّ أصحابنا بهذا على ما ذهبوا إليه من أنّ أبوي إبراهيمعليه السلام لم يكونا كافرين، لأنّه إنّما يسأل المغفرة لهما يوم القيامة، فلو كانا كافرين لما سأل ذلك، لأنّه قال: فلمّا تبيّن له انّه عدوّ لله تبرأ منه، فصحّ انّ أباه الذي كان كافراً إنّما هو جدّه لأُمّه أو عمّه على الخلاف فيه.

ومن قال إنّما دعا لأبيه، لأنّه كان وعده أن يسلم فلما مات على الكفر تبرّأ منه على ما روى الحسن، فقوله فاسد، لأنّ إبراهيمعليه السلام إنّما دعا بهذا الدعاء بعد الكبر وبعد أن وهب له إسماعيل وإسحاق، وقد تبيّن له في هذا الوقت عداوة أبيه الكافر لله، فلا يجوز أن يقصده بدعائه.[٢]

وإلى هنا نجعجع بالقلم عن الإفاضة نحمده سبحانه ونشكره الذي بنعمته تتم الصالحات.

وقد وقع الفراغ من هذه الرسالة ظهيرة

يوم الخميس ٧ شوال المكرم

من شهور عام ١٤٢٣ هـ

جعفر السبحاني

---

١. إبراهيم:٣٩.

٢. مجمع البيان:٥/ ٤٩١.

فهرس المحتويات

الحمد لله ربّ العالمين

في رحاب نوابغ العلماء ١



Al-Sheakh Al-Tabarsi

تعتز الأمم - جميع الأمم - بالعظماء من علمائها ومفكريها وقادتها، الذين كرسوا حياتهم للنهوض بالأمة في ميادين العلم والعمل والكفاح والجهاد، تلبية لدواعي الوفاء لهم، وتثميناً لجهودهم، وتعريفاً بمقامهم ومكانتهم واستلهاماً لعطائهم الثري، وتحقيقاً لهذه الأغراض آثرنا القيام بتأليف سلسلة (في رحاب نوابغ العلماء) نلقي فيها الأضواء على جوانب مهمة من سيرة علمائنا الأفذاذ ونعرض لأهمّ آرائهم وأفكارهم ونتاجاتهم المتميزة.



حارة حريك - شارع الشيخ راغب حرب - قرب نادي السلطان
ص.ب: ١٤ / ٥٤٧٩ - هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ - تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧
E-mail:almahajja@terra.net.lb
www.daralmahaja.com
info@daralmahaja.com